تاريخ إفريقيا الشمالية

تونس، الجزائر، المغرب الأقصى

من البدء إلى الفتح الإسلامي 647م

شارل أندري جوليان

تعريب : محمد مزالي / البشير بن سلامة



طبع هذا الكتاب سنة 1968 ولم يصدر منه أي طبعة أخرى
حتى قامت مؤسسة تاوالت الثقافية بإعادة طباعته وتصفيفه

مؤسسة تاوالت الثقافية 2011
http://www.tawalt.com/

مقدمة الناشر

مهما قدمنا لقرائنا من أعمال تاريخية تتناول ماضينا المجيد، فنحن لا نوفي حضارتنا حقها من الدراسة والتقييم. وذلك أن عمليات التشويه والتحريف التي قام بها (هواة التاريخ) من المستعمرين والمبشرين إزاء أمجادنا ما تزال آثارها إلى اليوم. وقليلة هي الأقلام التي أخلصت لعلمها ونظرت للتاريخ نظرة موضوعية تستكشف الحقائق وتستنطق الأحداث وتتحسس لنصرة القضايا التحريرية العادلة تستشف طموح الشعوب وتتحسس تحركاتها. من بين هذه الأقلام وفي طليعتها نضع المؤرخ الفرنسي شارل أندري جوليان الذي كرس جزءا كبيرا من حياته لإبراز تاريخ المغرب العربي ومتابعة أحداثه وتسجيل نضاله وتطوره. فقد عايش شعب المغرب العربي وكان شاهدا على سعى هذا المغرب نحو استقلاله ثم نحو تقدمه.

لكل هذه الأسباب. وتولى الأستاذان محمد مزالي والبشير بن سلامة منذ سنوات تعريب هذا الكتاب وسارعنا بنشره وها نحن نصدره للمرة الثالثة. فقد قدم المعربان للقارئ العربي وثيقة شاملة وصادقة عن كفاح المغرب وماضيه ومكوناته الحضارية، بل وعبقريته في شتى المجالات السياسية والفكرية. وكان هذا التعريب في مستوى النص الأصلي لما يحرك الرجلين من إيمان بأصالة ماضيهما ورسالته الخالدة.

أملنا أن يلقى هذا العمل الأضواء على تاريخنا ويزيح عنه غشاوة الأفكار المسبقة والأحكام الجاهزة وان يفتح الأبواب في وجه الباحثين لمزيد الاستقصاء والدرس والتمحيص، خاصة وان هذه الطبعة تصدر في نفس الوقت مع طبعة ثانية للجزء الثاني للكتاب حتى يكون عملنا متكاملا متتابعا خدمة للتاريخ والثقافة في هذه الربوع.

الباب الأول

بلاد البربر

1 - الموطن

2 - المغرب الأقصى والجزائر وتونس

3 - الإطار الجغرافي لتاريخ أفريقيا الشمالية

I - المواطن

1 - ضبط لتسمية البلاد وسكانها:

إن لإفريقيا الشمالية، المشتملة على المغرب الأقصى والجزائر وتونس، وحدة جغرافية اقتضتها مجموعة جبال الأطلس، ووحدة جنسية لكونها آهلة بالبربر ولكن ليس لها تسمية مضبوطة.

فقد أطلق اليونان اسم ليبيا على القسم الشمالي من إفريقيا الآهل بالبيض، وقابلوا بينه وبين الصحراء بلاد الاحابشن السود. وقيل أن يكون للفظة "إفريقية " (Africa) نفس المدلول الذي كان لكلمة ليبيا استعملتها رومة للدلالة على المقاطعة الموافقة لشمال شرقي البلاد التونسية. ثم أصبحت كلمتا إفريقيا وليبيا فيما بعد تعنيان القارة كلها.

وسمى العرب النازحون من الشرق كل البلاد الكائنة غربي مصر جزيرة المغرب وبصفة أدق سموا أقصى غربي المغرب Far West المغرب الأقصى.

وعرفت القرون الوسطى والعصور الحديثة الدول البربرية أو بلاد البربرية. وفي القرن التاسع عشر وضع الجغرافيون عبارة إفريقيا الصغرى ليدلوا على وجود قارة صغيرة واقعة ضمن قارة كبيرة وعبارة بلاد الأطلس لتأكيد أهمية تشكل الصخور Tectonique وكثيرا ما تجري على الألسن لفظة إفريقيا الشمالية الفرنسية وذلك من الوجهة السياسية. وفي بعض الأحيان تستعمل لفظة شمال إفريقي، وفي هذا مزج جديد لا طائل تحته بين إفريقيا الشمالية والشمال الإفريقي.

وأفضل تسمية هي: بلاد البربر إذ أن سكانها يكاد يكون جميعهم من البربر دون سواهم، وإن وجد بربر خارج حدودها.

ولم يطلق البربر على أنفسهم هذا الاسم، بل أخذوه من دون أن يروموا استعماله عن الرومان الذين كانوا يعتبرونهم أجانب عن حضارتهم وينعتونهم بالهمج Barbari ومنه استعمال العرب كلمة برابر وبرابرة (مفرد بربري).

وأطلق اليونان علي جميع أهالي إفريقيا الشمالية أو الليبيين اسم قوم كانوا يعيشون

بين خليج سيرتا (Syrte) والنيل هم اللوبيون(Les Lebou) واستعمل القرطاجيون والعبرانيون نفس التسمية. وكذلك الرومان فقد عمموا اسم " الموريون " على جميع سكان بلاد البربر وكان الأول خاصا بسكان شمال المغرب الأقصى.

واليوم لا يعرف عامة الناس أن المغرب الأقصى والجزائر وتونس آهلة بالبربر. ويعمدون إلى تسميتهم عرب. أما الأهالي فكثيرا ما كانوا يسمون أنفسهم أمازيغ (مؤنثه تمازيغت وجمعه أمازيغن). ومعناه " الرجال الأحرار". ثم " النبلاء ". وقد أطلق هذا الاسم على قبائل عديدة قبيل الاحتلال الروماني.

2 - كتلة من المرتفعات:

إن "جزيرة المغرب" شكلها رباعي الأضلاع ممتد الأطراف مشتمل على مرتفعات تحوطها مياه المحيط أو البحر المتوسط ورمال الصحراء. وإذا كان من المحتمل أن يكون أهلها أتيح لهم في مطلع عصور ما قبل التاريخ الاتصال بأوروبا عن طريق الجسور التي كانت تربط إلى ذلك الوقت بين القارتين، كما أتيح لهم الاتصال بإفريقيا الوسطى عبر الصحراء التي لم تكن يومئذ على وحشتها الحالية، فإن انعزالهم في جزيرتهم طوال عصور التاريخ جعل تسرب التأثيرات الخارجية إليهم أعسر، وإن كان أشد عنفا، ومكن التقاليد المحلية من الصمود في وجه طوارق الأزمان.

وأضلاع هذا الشكل الأربعة متفاوتة الأبعاد. فبين رأس سبارتيل (Spartel) والوطن القبلي "1550 كلم" تقريبا، وبين رأس النون وقابس "2200 كلم". وبين رأس سبارتيل ورأس النون أكثر من ألف كلم. وبين الوطن القبلي وقابس أقل من "400 كلم" وتبلغ المساحة الكاملة "930000 كلم مربع " وإذا استثنينا غربي المغرب الأقصى وشرقي تونس، فإن الأراضي المنخفضة قليلة، لكننا نجد بالخصوص سهولا مرتفعة ونجادا محاطة بكتل جبلية مستديرة الشكل تندمج في مجموعة الأطلس. ويرجح أن هذا الاسم بربري الأصل إلا أن شكله الحالي مستعار من جغرافية المغرب الأقصى القديمة وقد أطلقه المعاصرون على مجموع جبال إفريقيا الشمالية.

إن أكثر من نصف بلاد البربر يتجاوز ارتفاعها "800 م" وإذا كان معدل الارتفاع في تونس لا يتجاوز "300 م" تقريبا، فإنه يبلغ في المغرب الأقصى " 800 م". وفي الجزائر "900 م". إلا أن تلك الأرقام " وهذا هو المهم " ليست ناجمة عن وجود جبال شاهقة إلا بنسبة

ضئيلة - فإذا بلغ ارتفاع جبل " تبقال " بالمغرب الأقصى " 4165 م" فإن أعلى قمة في الجزائر وهي قمة جبل شلية (أوراس) لا تبلغ إلا "2328م". وأعلى قمة في تونس وهي قمة جبل الشعانبي لا تبلغ إلا "1590 م" فقط. ومعنى هذا أن بلاد البربر تخص بأن ارتفاع جبالها يتراوح بين "800" و"1200 م".

وفي بعض الأحيان يوجد تضارب عنيف بين هذه التضاريس وبين السهول. فجبال الأطلس في متيجة تشرف من علو " 1400 م " على مدينة البليدة الصغيرة الواقعة في أسفلها. ويزداد هذا التفاوت في المستويات بين قمم جرجرة ووادي الصومام الذي يحاذيها جنوبا. وبين الأطلس وحوز مراكش وبين الريف والبحر. ولكن الجبل في أكثر الأحيان ليس إلا الدرجة العليا من جملة درجات متساوقة فيبدو متواضعا في الأفق الذي يسده.

وهكذا نجد في جبال عمور جبل سيدي عقبة (1700م) يعلو سهل عفلو (1426 م) وكذلك الأمر بالنسبة للجبال التي تحاذي شمالا منخفض الهدنة (1890 م) (ارتفاع جبل بو طالب 1890م.) فهي تعلو نجاد سطيف (ارتفاع سطيف 1074 م).

إن تضاريس بلاد البربر أثرت بخاصيتين جوهريتين على مصير البلاد تأثيرا حاسما في أكثر الأحيان. فتجزؤ البلاد إلى أقسام مستقلة الواحد عن الآخر لم يكن خطرا على وحدة السياسية خلال العصور فقط، بل إنه ساعد في بلاد القبائل أو الأوراس مثلا على تكوين مجموعات بشرية لها خصائصها الذاتية. ولا تزال إلى اليوم صامدة أمام اكتساح التاريخ. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الاتجاه العام للجبال حسب خطوط العرض جعل الاتصال بين الشرق والغرب سهلا نسبيا إلا أنه عدد من الحواجز ما بين الساحل وداخل البلاد. وإذا استثنينا ساحل المغرب الأقصى المواجه للمحيط الأطلسي وشرقي تونس فإن المغرب لا يكشف إلا عن وجه عدائي. وكان سالسطس(Sauste) لاحظ ذلك بقوله: بحر عارم اللج عديم المرافئ (حروب يوغرطه، الفصل 17).(Bell. Lng XVII) mare) saevum, importuosum ولذلك يتضح بسهولة لماذا دخل جميع الغازين بلاد البربر من أحد طرفيها. ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا الغزو الفرنسي. ولعل في ذلك تفسيرا لبعض ما لاقاه هذا الغزو من صعوبات.

3 - طور تكوين تضاريس القشرة الأرضية (orogénie):

إن هيئة الأرض المتصفة في آن واحد بالتكتل والتجزؤ والتي أثرت أيما تأثير على تاريخ بلاد البربر يتضح أمرها بالرجوع إلى أطوار تكون التضاريس. وبما أنها بقيت طويلا مجرد حاشية للقارة الإفريقية فقد خضعت لما خضعت له هذه القارة من تغييرات. ففي

الحقبة الأولية (L'ère primaire) وحتى قبلها غيرت سلسلة من الحركات والالتواءات عقبتها أطوار من الانجراف (érosion) ملامح هذه الأرض تدريجيا وعندما انخفض "شبه سهل ما بعد العهد الهرسيني (pénéplaine posthercynienne) وغمرته المياه ظهر موقع بلاد البربر طوال العصور الثانوية شبيها ببحر متوسط تخللته جزر وأغوار عميقة. وامتد من الغرب إلى الشرق على حاشية القارة الإفريقية التي بقي معظمها خارج المياه.

ويمتد طور الترسب الطويل الذي تلا ذلك إلى أوائل العصور الثلاثية أثناءها برزت بلاد البربر بروزا. وأصبحت تحت تبعية أوروبا الجيولوجية إن صح هذا القول: ذلك أنه في الوقت الذي انبثقت فيه الجبال " البيرينيه " (Pyrénées) ظهرت مجموعة من الجبال كأنها نوع من "ما قبل الأطلس" معقدة تراكبت فيها الرواسب (sédiments) الثانوية، والثلاثية التي التوت في عنف متفاوت القوة مع بقايا "شبه سهل ما بعد العهد الهرسيني" وقد ارتفعت هذه البقايا في نفس الوقت الذي ارتفعت فيه الجروفات.

وهذا الالتواء الأول نتج عنه تحول البحر الأبيض المتوسط إلى الشمال. ولكن هذه المجموعة من الطبقات الأرضية التي اعترتها التواء أخرى لم تظهر في شكلها الحالي إلا في النصف الثاني من الحقبة الثلاثية، في نفس الوقت الذي تكونت فيه جبال الألب (Alpes)، وتغير من ملامحها ما تغير. ولم تنفصل إفريقيا عن صقلية إلا في الحقبة الرباعية حيث وقع خسوف في الأرض فصل بين الريف وسيرانيفادا (Sierra Névada) وتولد عنه مضيق جبل طارق. إلا أنه يجب أن نلاحظ أن تضاريس إفريقيا الشمالية تطورت منذ أن تكونت بتأثير عاملين أساسيين: أولا الانجراف الذي فتتها بقوة تتفاوت شدة وضعفا بسبب اختلاف مستويات البحر خاصة. وثانيا النقل (remblaiement) الذي غشاها في الجهات المحرومة من مصب يصلها بالبحر، وخاصة في السهول المرتفعة الممتدة بين الأطلسين.

4 - المناخ:

إن سلطان المناخ على البشر أشد سطوة وأكثر تقلبا من مفعول التضاريس التي تتأثر به في شتى مظاهرها. ذلك أن الصيف الذي كثيرا ما يكون باكرا وخاصة كلما توغلنا في الجنوب يتبع الشتاء والشتاء يتبع الصيف في طفرة ومن دون تدرج. ومعدل درجات الحرارة على السواحل لا يفوق 25 درجة. لكن حر النهار يبقى منتشرا في الليل الثقيل. والهواء الرطب كثيرا ما يعترض الآفاق كأنه بخار رمادي. والشتاء معتدل، نير بصفة عامة، ولكنه لا يزود البشر بما يحتاجون إليه من طاقة ونشاط كما هو الشأن في

أوروبا. والتضاد يقوى إذا توغلنا في داخل البلاد. ففي الصيف يطول النهار ويجف الهواء وتعلو درجات الحرارة بسرعة وكثيرا ما يبلغ حدها الأقصى 40 وحتى 45 درجة.

غير أن كثرة الأمطار هي الظاهرة الرئيسية من الناحية البشرية: فإذا انفتح المغرب الأقصى انفتاحا إلى التأثيرات الأطلسية فإن وضعية التضاريس سواء بالجزائر أم بتونس تمكن رقعة ساحلية ضيقة من التمتع بكمية كافية من المطر. وبصفة عامة فإن الخط الذي يجمع بين الأماكن التي يبلغ نزول المطر فيها 400 مليمتر مواز للساحل الشمالي بمسافة تتراوح بين 100و200 كلم ولا تتجاوز هذا الرقم إلا نادرا. وبعد هذا الخط تبدأ السباسب (Steppes).

ولو أن ماء المطر كماء النيل يعد هدية تقدمها باستمرار آلهة قارة لهان الأمر ولكن كمية الأمطار كثيرا ما تتحول بسهولة إلى ثلاثة أضعافها من سنة إلى أخرى وأحيانا بنسبة أكبر. ولقد سجلت في "جلفة" كمية الأمطار النازلة سنة 1913 كانت 99 مليمترا مقابل 775 في سنة 1893. ولا شك أن الأمطار تتوزع تقريبا على أيام الشتاء دون سواه. ولكنها تتهاطل بغزارة أحيانا في بضع ساعات فسرعان ما تتضخم الوديان بالمياه الممزوجة بالطين بعد الجفاف. فلا غرابة إذن أن يبلغ إنتاج الحبوب في المغرب الأقصى 38 مليون قنطار سنة1941 وألا يتجاوز 4 ملايين ونصف قنطار في سنة 1945. وحتى بركة الأولياء فكثيرا ما تبقى عاجزة أمام بخل السماء.

5 - الحياة النباتية:

إن ما عليه الحياة النباتية اليوم في إفريقيا الشمالية نتيجة لظروف طبيعية ولعمل البشر كما هو الشأن في جميع البلدان العريقة في العمران. ويصعب في كثير من الأحيان أن نعرف بالضبط إلى أي حد أثر أحد هذه العوامل على الأخرى طوال آلاف السنين الأخيرة. إلا أنه مهما بلغ بنا الخيال لا يمكن أن نتصور أن هذا العمل قدر على تغيير معطيات التضاريس والمناخ تغييرا جوهريا.

والذي لا شك فيه على ما يظهر هو أن مساحة الغابات التي تبلغ اليوم 6 ملايين من الهكتارات تقريبا تناقصت خلال عصور التاريخ. فانتشار المزروعات وحاجة البشر إلى الوقود أو إلى مواد البناء وما قضمته أسنان الحيوانات، كل ذلك يعلل تعليلا كافيا تناقصيا الغابات ولو بصورة نسبية. وفي كثير من الأحيان حلت فعلا النباتات الشوكية والأراضي القاحلة محل الغابة. فلا مبالاة البدو الرحل ولا عداؤهم قضيا على الأشجار وخاصة الزياتين في جهات تشهد آثار المعاصر على وجودها فيها قديما. إلا أن إفريقيا

الشمالية رغم ذلك لم تكن أبدا منطقة غابات فسيحة على الأقل في عصور التاريخ وباستثناء بعض الجبال. ومع ذلك فإنه يجب ألا ننسى أن تزايدا في نمو الغابات قد حصل هنا وهناك منذ عصور التاريخ القديمة.

والواقع أن السباسب التي قد يكون تفوقها ازداد شيئا ما خلال آلاف السنين الأخيرة هي التي تلعب الدور الفعال في التطور البشري لإفريقيا الشمالية. فهي تفرض ظروفا حياتية تختلف بحسب تفاوت أهميتها. فتارة تبعد البشر أو تكاد. وطورا تضطرهم إلى حياة غير مستقرة توقعها حركة الفصول. وأخرى تتطلب صبرا وقناعة عندما تتوالى السنوات العجاف. وهي تحتل على الأقل نصف مساحة إفريقيا الشمالية بالرغم عن ارتفاع البلاد الذي من شأنه أن يعمل على التنقيص منها.

غير أنه يجب أن نتحرى عندما نشاهد اليوم مناظر البلاد فنظن أنها على حالتها تلك منذ القدم. فسهل "متيجة" كان جزء منه منذ ما يزيد كثيرا عن القرن مغمورا بالمستنقعات. ويجب أن نتخيل أرضا جرداء عند الوقوف أمام زياتين صفاقس. وحتى بعض أنواع النبات فإنها لم تكن موجودة في المناظر الطبيعية القديمة فشجرة الكلتوس (eucalyptus) الاسترالية الأصل دخلت البلاد في القرن التاسع عشر وشجرة كسيروفيل (xérophile) الأمريكية أدخلها الإسبان منذ ثلاث أو أربعمائة سنة ولكن حصل العكس في مواطن أخرى إذ لا شك أن بعض المدن الرومانية مثل "تيمقاد" (Timgad) أو "جميلة" (Djemila) لم تشيد أبنيتها الحية في مثل هذا الأفق العاري القاحل حيث نشهد اليوم أطلالها شاخصة.

6 - أقسام إفريقيا الشمالية الكبرى:

إن إفريقيا الشمالية ليست كتلة منسجمة بالرغم عن الظروف العامة التي اقتضت تضامنها المادي والبشري. ذلك أننا نميز اليوم بين المغرب الأقصى والجزائر وتونس، وهي أقطار لا تطابق حدودها مطابقة تامة الحدود التي تفرضها الجغرافيا وليس معنى ذلك أن هذا التمييز لا مبرر له. فقد برزت خلال آلاف السنين الثلاثة شخصية الجزأين المتطرفين من شمال إفريقيا واندرجت بينهما الشخصية السلبية "إن صح هذا التعبير"، التي نسميها الجزائر. ولا شك أن خصائص هذه الأقطار تنمحي في بعض الأحيان ضمن ما تشيده السياسة من صروح تندمج فيها هذه الخصائص وتشوه. إلا أن انبعاثها من جديد يقيم الدليل على ديمومتها التي تعللها الجغرافيا في مظاهرها الأساسية تعليلا مرضيا على سبيل الإجمال.

II - المغرب الأقصى والجزائر وتونس:

1 - المغرب الأقصى:

إن وجه الشبه بين تضاريس غربي المغرب الأقصى وإسبانيا كبير جدا. فلو أمكن كما تخيل ذلك "تيوبالد فيشير" (Théobald Fischer) ضم تضاريس البلادين بعضها إلى بعض حول المفصلة المتمثلة في مضيق جبل طارق لطابق الريف سلسلة جبال البيتيس (Cordillère Bétique) ولقابلت مهاد تازة وسبو والغرب الأندلس. ولطابق أيضا الأطلس المتوسط الهضاب الإسبانية والأطلس الأعلى جبال "البيرنيه". وعلى العكس من ذلك يبدو المغرب موليا ظهره للجزائر. ويلتحم القطران في القسم الشرقي من المغرب الأقصى الذي لا يخضع لسلطة الجزائر الإدارية ولكنه تابع لها جغرافيا باعتباره امتدادا لسهولها العليا.

أما شمال المغرب الأقصى فهو منطقة جبلية أقل ارتفاعا من الأطلس إلا أن قربها من البحر المتوسط ووجود الأمهاد المحيطة بها أبرزا هذا الارتفاع. ومن هناك تبدو في وضوح سلسلة جبلية مقوسة طولها 300 كلم تجويفها متجه نحو الشمال وتسمى الريف. ثم إن بوغاز جبل طارق الذي هو مضيق قديم غمرته مياه البحر وآخر ممر لغربي الأطلس. لا يفصل المجموعة الجبلية الشمال إفريقية والسلسلة الجبلية الأوروبية إلا بفاصل ضيق لأن سلسلة "جبال البيتيس" امتداد للريف المغربي في الأندلس - وفي جنوب الريف تتتابع الجبال في شكل دائرات منتظمة ذات مركز واحد. وفي جبل زرهون ينتصب ضريح مؤسس الدولة الإدريسية.

وتمتد السهول والنجاد بين المحيط الأطلسي وسفح الأطلس. فالنجاد في الشمال بين طنجة وفاس في الجهة المسماة بالغرب أقل بروزا وكذلك الهضاب تحيط بالسهول المتكونة من الجروفات. والقسم الغربي من الطريق الرئيسية التي تشق البلاد عرضا والتي منها وصلت جيوش الغزاة الآتية من الشرق إلى الساحل الأطلسي يتكون من سهول نهر سبو وأحد روافده من اليمين وهو واد أناون (Innaouen).

وإذا كان لفاس ومكناس شأن كبير فالفضل يرجع إلى حد بعيد لكونهما واقعتين في مفترق طرق رئيسية. أما تازة فهي تشرف على الممر الواصل بين جبال الريف والأطلس المتوسط.

وفي الجنوب تبدو في جلاء النجاد المنضدة بين المحيط الأطلسي والأطلس في ما يسمى "باليزتا" المغربية وهي هضبة ضخمة عتيقة مغطاة برواسب الحقبة الثانوية أو الثلاثية المتراكمة تراكما أفقيا.

ومن جهة المحيط يبدأ هذا النجد (horst) بسهل ساحلي يقل عرض رقعته حينا قرب الرباط و"مغادور" ويتسع حينا آخر فيبلغ 80 كلم في "دوكالة " ثم يرتفع تدريجيا إلى أن يصبح نجدا ممتد الأطراف خصبا يبلغ 700م ويشقه خور (Cañon) أم الربيع.

وتشتمل مجموعة الأطلس على سلسلة جبلية يبلغ طولها 700 كلم تسمى الأطلس الأصلي، متجهة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي. ومنها يتفرع المتوسط نحو الشمال الشرقي، ونجاد الأطلس الجنوبي نحو الجنوب الغربي. إلا أن العلاقات بين هذه الأجزاء الثلاثة لا تزال غير مضبوطة على ما يظهر. فجبال الأطلس الأعلى ذات الصخور البلورية غربا حيث تشرف على سهل مراكش والسوس من ارتفاع 3000 أو 4000 م تتخذ شرق القلاوة حيث تتضاءل أهمية الصخور القديمة، أشكالا ضخمة ذات مظهر "جوراسي". والأطلس المتوسط جبل مرتفع متكون من صخور جيرية جوراسية ويغيب شبه سهل المنطقة الجبلية الوسطى ذو الصخور البلورية في الشرق تحت نجدي: "بني مطير وبني مقيلد"، وأرضهما رغاب ذات أخاديد. وقد تناثرت حمم البراكين الحديثة على هذه المنطقة الجبلية الوسطى، مما جعل المنظر الطبيعي شبيها بصفحة القمر متميزا بذلك ولا تبدو آثار الالتواء فعلا إلا على الحاشية الجنوبية والشرقية. أما جنوب الأطلس فهو أقرب إلى "الميزيتا" منه إلى سلسلة جبلية. وتشرف آخر جبالها الدنيا في الجنوب الغربي على المحيط الأطلسي قرب رأس النون. ويصل بركان "سروا" الكبير جنوب الأطلس بالأطلس الأعلى وعند سفحه يتحد سهل سوس. أما نجدا "الدراع" "تافلالت" فإنها امتداد له نحو الشرق.

ومن خصائص تضاريس المغرب الأقصى وجود مجموعتين من السهول تمتد الأولى من مصب "تنسيفت" إلى "الملوية"، وتحتوي على سهل ما دون الأطلسي وسهول نهر سبو (الغرب) ومعبر "تازة" وسهول الجهة السفلى من نهر الملوية الذي الطريق الكبرى الرابطة بين المحيط الأطلسي والجزائر رغم بعض العقبات. أما المجموعة الثانية فتتركب من سهل

حوز الذي يشقه نهر "تنسيفت" ومن سهل "تادلا" الكبير. والمواصلات ميسورة بين السهلين.

على أن المغرب الأقصى يدين أيضا بجانب طرافته لمناخه، وما تضفيه عليه هيئة التضاريس من شبه بمسرح مدرج يسمح للمؤثرات الأطلسية بالتوغل داخل البلاد. ولا شك أن الجفاف يشتد كثيرا جنوب أم الربيع، إلا أنه من النادر ألا تبلغ درجة الأمطار النازلة شمال الأطلس 200 مليمترا. ولم يفت الجغرافيين منذ العصور القديمة أن عبروا عن دهشتهم من ظاهرة مثيرة حقا للعجب في إفريقية الشمالية وهي وجود وديان تجري فيها المياه فقد لاحظ "بلين" (Pline) ذلك قائلا: "السبو هذا النهر الرائع".

2 - الجزائر:

لقد تبين الجغرافيون بالجزائر منذ أوائل الاحتلال ثلاث مناطق موازية تقريبا للساحل وهي: منطقة التل الأطلسي ومنطقة النجاد العليا أو بعبارة أصح السهول العليا، ومنطقة الأطلس الصحراوي. ولم يلاحظوا إلا مؤخرا اتصال الأطلسين في شرقي الجزائر.

ولهاتين السلسلتين الجبليتين خصائص متباينة. ففي التل الأطلسي تبدو بالأرض التواءات عنيفة وتقلبات عظيمة. أما الأطلس الصحراوي الالتواءات به أبسط بكثير وفيها تدرج رفيق نحو الصحراء. أما السهول العليا فليست منبسطة إلا نادرا على أن تضاريسها تختفي تحت كتلة مهولة من رواسب التل الأطلسي التي غمرتها.

وقد أكد الجغرافيون أنه يمكن تقسيم الجزائر إلى جزائر غربية، وجزائر شرقية وأعاروا هذا التقسيم أهمية أبلغ.

لا يظهر التقسيم المألوف من نجاد عليا وأطلسين يحيطان بها إلا غربي الجزائر. وهناك مجموعتان من السهول: فمن جهة غور الشليف الساحلي المتصل غربا بسهل سيغ وسبخة وهران، ومن جهة أخرى غور أوسط فيه سهول بسكرة وسيدي بلعباس وتلمسان، وقد أحاطت به جبال التل الأطلسي الصغيرة وهي: جبال ساحل وهران والظهرة شمالا وجنوبا، وجبل تسالة وخاصة جبل الورشنيس وهو أعظم جبل يحف بوادي شليف في غربي الجزائر.

أما الأحواض الموجودة في النجاد العليا التي لم تنحدر مياهها لا إلى البحر ولا إلى الصحراء هي منغلقة ذات تضاريس على نمط واحد تركد فيها الشطوط الكبيرة.

وتوجد بالجنوب جبال الأطلس الصحراوي القصيرة المتوالية وهي: جبال قصور وجبال عمور وجبال أولاد نايل التي تتتابع من المغرب الأقصى إلى الهدنة بصورة منتظمة، والتي تفصل بينها ممرات واسعة تسهل معها المواصلات وتشرف هذه الجبال من ارتفاع قدره ألف متر على الصحراء التي تختفي تحت كتلة من الرواسب المنجرفة من سفوحها.

وتفقد الجزائر في قسمها الشرقي هندستها العادية. ويبدو الساحل في غالب الأحيان رائعا، ولكنه لا يتيسر فيه العمران. ولا توجد السهول الساحلية إلا في طرفي هذه الجهة: ففي الغرب نجد سهل "متيجة" وراء هضاب ساحل مدينة الجزائر، ونجد في الشرق السهل المعروف بسهل عنابة الممتد على شكل هلال في جنوب جبل هدوق Edough. وكثيرا ما تنتصب الجبال على حافة البحر بالذات كجبل القبائل العظيم المتصل جنوبا بأعالي جرجرة الناتئة الكلسية أو اتجهنا أكثر نحو الشرق جبال بابور والمجموعة المتقطعة الممتدة من رأس "بوقرعون" إلى رأس الحديد (Cap de fer).

وليست جبال التل وراء المنطقة الساحلية من واد شلف إلا عناصر متوالية إلى الحدود التونسية فاقدة لكل المميزات لا يتجاوز البتة ارتفاع قممها 1800م تتخللها أحيانا سهول صغيرة وهي بقايا أحواض عتيقة جفت مياهها (سهل الميلية وقالمة) وتضطر طرق المواصلات إلى المرور من معابر (Cluses) ضيقة غائرة مثل مخانق بلسترو أو تلك التي يسميها الأهالي البيبان والتي شهرتها حملة "دوق أورليان" سنة 1839 تحت اسم (أبواب الحديد) (Portes de fer).

وتنتهي التلال العليا عند غور الهدنة والجبال الصغيرة للأطلسين المتصلين بعضهما ببعض بالقرب من خط الزوال بعنابة تخفف من حدة التلال العليا القسنطينية وتكسبها شيئا من التنوع.

أما الأطلس الصحراوي الذي تحافظ قممه الناتئة الحادة على اتجاهها من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي فلا يقل وعورة عن التل الأطلسي. ويمثل جبل أوراس حزمة مرتفعة، ذات أوضاع عادية حيث توجد أعلى قمة في الجزائر (جبل شلية 2328 م) وتتخلله أودية ضيقة. وينفتح بين الأوراس من جهة وبلاد " بلازمة" وجبال زيبان من جهة أخرى ممر إلى الجنوب من وادي "واد قنطرة" الواصل بين التلال العليا والصحراء.

3 - تونس:

إن الحدود الحالية بين الجزائر وتونس لا تطابق الفاصل الطبيعي الذي يمكن تبينه إجمالا غربي هذه الحدود بالقرب من خط الزوال المار بعنابة حيث كانت حدود نوميديا الرومانية تقريبا.

والمنطقة الجبلية التي هي امتداد لجبال الأطلس الصحراوي تشق البلاد متجهة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي ثم تنحدر شيئا فشيئا حتى هضاب شبه جزيرة الوطن القبلي وهي عبارة عن منت هي عظم الفارة (Epiphyse continentale) وهذه المنطقة التي تعرف بالسلسلة الظهرية تفصل في الواقع بين تونسين: تونس التل وتونس السباسب.

وفي التل التونسي الذي هو امتداد طبيعي للتل الجزائري توجد جهتان جبليتان تحيطان شمالا وجنوبا بالسهول التي يشقها وادي مجردة وروافده. فنجد من جهة الجبال المشجرة المتواضعة الارتفاع (يبلغ هذا الارتفاع 1200م فقط في القسم الغربي منها) ومنها جبال خمير ومقعد، ومن جهة أخرى نجد جبالا متشابكة عارية ذات أشكال ضخمة، وسهولا صغيرة تسمى أحيانا التل العلوي. أما الجهات التي يشقها واد مجردة فهي في واقع الأمر وحدات متمايزة. ويتسع وادي مجردة شرقا قرب الخليج حيث استقرت العاصمتان الكبريان للبلاد التونسية عبر التاريخ: أي قرطاج وتونس.

وتبدأ السباسب جنوب السلسلة الظهرية: فهناك السباسب العليا في الجهة الغربية من البلاد حيث تنتصب في الأفق الرتيب الجبال الكلسية العارية حتى جنوب قفصة، ومنه تبدأ الصحراء.وهناك السباسب السفلى في الجهة الشرقية وهي سهول مترامية الأطراف تمتد من الجبال إلى البحر على وتيرة واحدة، ما عدا جهة سوسة (الساحل) حيث تذكرك الهضاب بمنظر طبيعي "شبيه بالتل"

وليس وجود هذه السهول أدعى إلى الملاحظة من وضعها. ذلك أنها لسهولة المواصلات بينها، ولموازاتها للبحر على غرار سهول المغرب الأقصى الجهة الوحيدة "المنفتحة" في إفريقيا الشمالية بالإضافة إلى السهول المغربية.

إلا أنه بينما يتجه المغرب الأقصى اتجاها معاكسا لما ظل عليه تاريخ العالم حتى القرون الخمسة الأخيرة نرى تونس المتصلة اتصالا مباشرا بحوض البحر المتوسط والبعيدة عن أوروبا ب140 كلم فحيب تتأثر بمؤثرات آتية من الشرق والغرب على التناوب وبنفس السهولة.

4 - ما وراء البلاد:

ومهما ضبطنا الحدود الجغرافية لإفريقيا الشمالية فإن إطارها لم يفرض نفسه فرضا خلال التاريخ ومن يوم أن رسم الفيلان (Les Philènes) بتضحيتهم البطولية، على رغم ما ورد في الأسطورة، الحدود الفاصلة بين قرطاج وقريني (Cyrène) فإن إفريقيا

تنتهي عند "سيرتا" العظمى ولا تتعداها. وقد تأكدت تبعية بلاد طرابلس الشمالية للمناطق الموجودة غربا مرات عديدة عبر العصور. وفعلا فإن سهول السباسب في الجنوب التونسي وراء مهاد الجريد هي نفسها التي تتواصل في منطقة لا يتجاوز عرضها 200 كلم مارة بالجفارة على حافة البحر حتى تنتهي مثلها إلى ساحل منبسط. أما في الجنوب فإن حاشية النجاد الصحراوية هي نفسها التي تتكون منها جبال القصور والطنف الكلسي الذي يصلها بضواحي طرابلس والمعروف باسم جبل.

ومن جهة أخرى فإنه يتعذر عزل الصحراء عن إفريقيا الشمالية في بعض العهود على الأقل. وإذا اعتبر الأطلس الصحراوي حدا جبليا تبدأ بعده نجاد الحمادة الصخرية العارية ومساحات "الرق" الحجرية أو رمال "العرق" فإنه لا يكون حدا مناخيا وبالأحرى حدا بشريا. فأهل الشمال هم الذين حققوا استعمار المزاب الرائع وبالعكس فإن قبيلة ك(أولاد سعيد عتبة) النازحة من ورقلة إلى سرسو وهي التي تحيي مدة أسابيع قليلة من كل سنة أرض زناتة القديمة. إلا أن ظاهرة تعايش حضر الواحات والرحل التي تمتاز بهما الصحراء أي امتياز ليست أصالة بظاهرة صحراوية.

ذلك أن جانبا كبيرا من جنوب بلاد المغرب يعرف هذه الظاهرة. غير أن الخط الملتوي الصاعد أحيانا إلى التل والذي نرسم به على خرائطنا حدود البداوة لم تضبطه الطبيعة منذ الأزل على الأقل في تفاصيله وإنها لمشكلة من أعوص مشاكل تاريخ المغرب أن نهتدي إلى تغيرات هذا الخط.

III - الإطار الجغرافي لتاريخ إفريقيا الشمالية:

1 - بلاد تابعة:

إن ما عليه تضاريس بلاد البربر يسر دائما للقادة العسكريين احتلال البلاد بسرعة عن طريق السهول المرتفعة المتسلسلة من سيرتا إلى المحيط الأطلسي. ومن سوء الحظ فإن هذه الطريق الوحيدة طويلة وضيقة أكثر مما يجب فهي تغص وتنسد فتتعثر حركة المرور فيها. وإذا بالغزو "وقد بدأ أحسن بدء" يبقى تخطيطا سريع الانهيار (أ.ف.فوثيه (E.F.Gauthier).

فالمغرب هذا البلد الذي يتكون القسم الآهل منه على حد تعبير أ. ف فوثيه من "حاشية مديدة يبلغ طولها 3000 كلم ولا يكاد يبلغ عرضها 150 كلم" مع "وضع من أدعى أوضاع العالم إلى السخرية" قد أعوزه طبعا مركز جغرافي تتجمع حوله المقاطعات المختلفة. ومناطق الريف والسوس وخمير منعزلة عن الجهات المجاورة لها والأنهار التي قيل عنها في استعارة جريئته: إن الكثير منها "تجري ولا ماء" طيلة جزء من السنة هي طرق للمواصلات متواضعة في غالب الأحيان ليست لها قيمة اقتصادية تذكر. ثم إن التجزؤ الطبيعي ساعد على تكوين الخصائص الجهوية وأقر المتناقضات وحال دون اختلاط السكان.

2 - المغرب الأقصى:

ليس من الصعب أن نتبين إلى أي حد أثرت جغرافية المغرب في تاريخه. وبالنسبة للمغرب الأقصى يكفي الركون إلى ج. سليري (J. Célérier) الذي خص المسألة بدراسة شافية في "ذكرى هنري باسي" (Henri Basset).

ولئن لم يكن للحدود الطبيعية إلا قيمة نسبية فهناك مغرب أقصى ومتميز بحدوده الجغرافية هو المغرب الأقصى الذي يكون "جهة طبيعية ذات شخصية واضحة المعالم أيما وضوح. وبالرغم عما تصطدم به حركة المرور من عقبات بسبب المحيط الأطلسي والريف والأطلس والصحراء فإن المغرب الأقصى لم يبق في هذا الانعزال الموحش الذي

يؤكده الباحثون عادة: إن إدارة السلاطين خلال القرنين 18 و19 هي التي أغلقت الحدود التي كانت مفتوحة تماما في عهدي الموحدين وبني مرين. وقد تنازعت المغرب الأقصى في عصوره كلها مؤثرات أوروبا وإفريقيا المتوسطية وإفريقيا المدارية.

إن المغرب الأقصى جزء لا يتجزأ من الكتلة الإفريقية. لذلك فإن مؤثرات الصحراء وحتى الغزوات المنطلقة منها طبعت تاريخه بالرغم من العقبات الطبيعية. لكن المغرب الأقصى ليس عبدا للقارة الإفريقية. ففي إمكانه أن يتخلص من هذه التبعية، ويتجه إلى المحيط الأطلسي، بل على الأقل إلى البحر المتوسط الذي يضيق على سواحله إلى حد يفرض معه جاذبية الأراضي الإسبانية التي تكتشفها الأنظار من هذه السواحل. وإذا شارك الساحل المغربي في العصور القديمة في نشاط البحر المتوسط فإن تاريخه في القرون الوسطى بقي متصلا وثيق الأنصال بتاريخ إسبانيا، ولم يدفع بالمغرب الأقصى من جديد إلى إفريقيا إلا بعد الغزو الإسباني (reconquista) فاضطر إلى الانطواء على نفسه، خاصة وأنه كان عرضة لهجوم أعدائه في الدين من الضفة الأخرى. وهكذا لم يعد للمغرب الأقصى، وهو طريق الإسلام في غربي بلاد البربر، صلة بإسبانيا النصرانية. ولم يستفد حتى من الغزوات الشرقية التي كان يمكن أن يجنى منها ثمارا. لقد كان المغرب الأقصى معبرا للفاتحين، لا مستقرا. فقد استوطن الدخلاء في المدن التي كانت لها حياة وحضارة مستقلتان عن حياة القبائل وحضاراتها، ولم يكن للأرياف البربرية من معرفة بمجموعة المدن إلا ما كانت توفره لها من نهب ثروات القصور والمنازل الأسواق.

إن التأثير المزدوج لإفريقيا والبحر المتوسط يظهر في وضع المغرب الأقصى ومناخه اللذين طبعا البشر فأثرا في تاريخهم. والمنطقتان المتنافستان على مر الدهر أعني مملكتي فاس ومراكش، تعبران عما بين الشمال المتوسطي والجنوب الإفريقي المستند إلى الواحات من تضارب. فقد قال " سلريي": "يوجد بين الجبيلات ولأطلس المتوسط عتبة مرور ممتازة تزيد أهميتها لالتقاء نهرين غزيرين بأم الربيع وهما واد العبيد والتسوات ولقربها من مناطق تادلة والحوز والدير والخصبة وكثيرا ما شهدت مقاطع هذه الأنهار معارك دامية".

وخلافا لما كان يجري في الجزائر فإن معالم دولة المغرب الأقصى لم تزل قائمة طيلة هذه المعارك المستمرة. وقد صمد حضر شمال المغرب أو البدو الذين استقروا بالسهول، أعنف صمود في وجه محاولات بدو الصحراء الذين كانت قد شلت حركتهم عقبة الأطلس الكأداء. وتمكن الحضر من الاستقرار في السهول المنفتحة ساعدهم على بسط سلطانهم وسهل عليهم فرض طاعتهم. لكن الجبال الوعرة - بلاد الصبا - كانت خارجة

عن سلطة " بلاد المخزن". وقد وفق البربر المعتصمون بالجبال في مقاومتهم لعزم سكان السهول على تعريبهم منذ أن شرع في ذلك إدريس الأول في القرن الثامن وعاشوا دائما في حالة حصار، ولم يمنعهم ذلك من أن ينزلوا من حين لآخر كتلا بشرية لا سبيل إلى صدها يقودها مؤسسو الإمبراطوريات. وإنما تاريخ المغرب الأقصى في مختلف تقلباته صراع لا يني بين الجبل والسهل.

وقد كانت للمغرب الأقصى عواصم سياسية أو ملكية تستجيب لحاجات معينة. فطنجة وهي ثغر إن لم نقل مستعمرة فينقية، وأكبر مدينة في موريطانيا الغربية حتى ثورتها على الملك البربري "بوغود" كانت في العهد الروماني عاصمة موريطانيا الطنجية التي لم تشتمل إلا على جزء من شمال المغرب الأقصى. وسواء كانت تحت سلطان البرتغاليين أو الإسبان أو السلاطين أو خاضعة للنظام الدولي الذي لم تزل عليه إلى اليوم فإنها استمدت قيمتها من وضعها في مضيق جبل طارق في المكان الذي يتسع فيه نحو المحيط الأطلسي. فلم تقم بدور عاصمة بقدر ما قامت بدور حارس الخطوط الأمامية بالنسبة للمغرب.

وكان لمدينتين أخريين: فاس ومراكش، تاريخ أكثر إشعاعا. أما فاس التي أسسها إدريس الأول وإدريس الثاني فقد ورثت الدور الذي كانت تقوم به وليلى (Volubilis) ولها فضل أكده "أ. ف. فوتيه": فيها الماء الذي تحتاجه المدن الشرقية أيما احتياج، هذه المدن لا يعرف أهلها كيف يجلبون الماء من بعيد ولا كيف يضمنون لمجموعة بشرية ما حاجتهم إلى الشراب. وهذا هو السبب الأصلي في ازدهارها. ولا يزال سكان فاس إلى اليوم يحمون ثروتهم من أعمال الري التي يطالب بها معمرو "السايس" ثم إنه يوجد فيها أيضا مواد البناء.

وبالتالي، فموقعها الوعر المساعد على حمايتها يستمد قيمته بالخصوص من كونه في مفترق الطرق التي تسيطر عليها وهي المواصلة إلى مراكش والرباط وطنجة وممر تازة. لذلك كان أسياد فاس هم دائما أسياد المغرب. ولم يتيسر لأية مدينة مغربية أخرى أن تكون جماع الدولة المغربية كما تيسر لمدينة فاس. لقد كانت في الواقع العاصمة السياسية والفكرية والدينية والاقتصادية. ويبدو مستقبلها التجاري لليوم لا حد له. وعلى بعد 60 كلم من فاس فقط في نفس هذه الجهة المحظوظة أسس السلطان مولاي إسماعيل في أواخر القرن السابع عشر على أنقاض بلدة عتيقة مدينة مكناس مقرا جديدا لملكه. وهذه المدينة المسيطرة على مفترق الطرق والغنية كجاراتها بالعيون ومقاطع الحجارة قد تصبح في المستقبل "قطب الرحى بالنسبة لقطارات المغرب

الأقصى" على حد تعبير الماريشال ليوتي. ولئن اتخذ الشمال مدينة فاس عاصمة له، فإن الجنوب جسم طموحه وكبرياءه بإنشاء مراكش. وهذه المدينة التي أسسها ابن تاشفين سنة 1062 لتكون قاعدة تنطلق منها حملات المرابطين رجال الصحراء على البدع التي دخلت الإسلام أصبحت عاصمة للدول التي بسطت نفوذها على أقصى الجنوب المغربي وظلت ثغر الأطلس الأعلى المتحسس أصداء الصحراء، والمستودع الكبير للواحات والجبال. ولا شك أن دورها كمركز توزيع سيزداد أهمية في المستقبل إلى حد أن أصبح تموينها اليوم بمثابة فريسة مغرية أخذت مواني المحيط الأطلسي تتنازعها بعد. وستسيطر على شبكة من الطرق المؤدية "أولاها إلى أغادير مارة بايمنتقوت وتزي نماشو وثانيتها نحو تارودانت مارة بالغندافة وتيزنتست، والثالثة نحو الذراع مارة بالقلاوة وتزي نوتلوات" (ج سيليريي) وجعل الاحتلال الفرنسي من ميناء الدار البيضاء، وهو منفذ للشاوية ومركز تزود في طريق إفريقيا الغربية، العاصمة التجارية للمغرب الأقصى. كما جعل من الرباط التي أفل نجمها بعد ازدهارها في عصر الموحدين العاصمة الإدارية ولكنها بقيت رغم ذلك مدينة "المخزن" الوحيدة المتصلة بالمحيط.

وقد كان للمغرب الأقصى عاصمتان كبيرتان متطرفتان ولم تكن له أبدا عاصمة وسطى، اللهم إلا مدينة أوداية الأسطوية والبلدة العظيمة الموجودة في تدلا والتي يروى أن المرابطين دمروها. ولعله من الضروري كما بينه أ. ف. فوثيه (E.F Gautier) أن تشاد بهذه البقاع في وادي أكبر نهر بالمغرب الأقصى وهو أم الربيع، عاصمة المغرب الأقصى الحقيقية.

3 - الجزائر وتونس:

إذا أمكن أن نكتب تاريخا للمغرب الأقصى مستقلا بذاته فقد لا يمكن فصل الجزائر وتونس بعضهما عن بعض، وهما قطران لا يوجد بينهما حواجز طبيعية، وقد خضعا لنفس الضرورات.

وقد ألح أميل فليكس فوثيه (E.F Gautier) تأكيدا بالغا منذ ما يزيد عن ربع القرن في خصوص التضارب الظاهر من حيث الظروف التاريخية وأساليب العيش بين الجهتين اللتين يفصلهما ما سماه " سلسلة خط الدفاع" (Limes) أي القوس الجبلي العظيم الذي يكتنف الجزائر من الورشنيس إلى الأوراس. غير أنه يتعذر علينا "والحق يقال" أن نذهب مذهبه. ذلك أن بحثا أكثر دقة حول "خط الدفاع " هذا أظهر انه لا يطابق الجبال إلا في ثلث المسافة على الأكثر. فلا يتصور بالأحرى كيف أن هذا الخط كان في أي عصر من عصور التاريخ حدودا قائمة.

ويجب الاستنجاد بأسباب أخرى لتعليل تضارب صارخ في بعض الأحيان فقد بين "ج. ديبوا " (J. Despois) أنه بفضل ما توفره مياه التل المتصل بلا انقطاع من "أومال" إلى القيروان من إمكانيات الري أمكن " لحاشية صحراوية طويلة "أن تفلت من سيطرة الصحراء. فهذه الحاشية التي ترسم في اتجاه الجنوب حدود الحياة الحضرية التي لا نجدها فيما بعد إلا في الواحات المحظوظة وما تفرضه خطط الدفاع هو الذي يتحكم آخر الأمر في تنظيم خط الدفاع المتحدث عنه بينما لا يعرف البدوي من جهته حدا يقف عنده في ترحاله إلا العقبة الطبيعية التي لا يتمكن من تذليلها، ويمكن القول بأن انتشار البداوة خلال عصور التاريخ واسعا كان أم محدودا ظاهرة سياسية.

إن بلاد البربر عرفت بدون شك حياة الحضر منذ العصور الحجرية القديمة. ولا شك أيضا في أن حياة البداوة ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ، فحتى القرن الثاني بعد المسيح على الأقل لم يزل البربر تتنازعهم الحياة الفلاحية والحياة الرعوية. فلم تكن المدن طيلة دهور إلا فسائل فينيقية غرست في أرض إفريقيا، ولم تتعدد مراكز الأهالي مثل "سيرتة" (قسنطينة) إلا حينما أجبر ملوك نوميديا البدو على الاستقرار. لكن العواصم البربرية رغم أنها تحمل عنوان ريجيا (Regiae) ليست إلا قرى متواضعة إذا هي قورنت بقرطاج التي أسسها الفينيقيون في أواخر القرن التاسع قبل المسيح في موقع بحري خارق للعادة هين الاتصال بالساحل والسباسب. ومنذ أن كانت مستودعا تجاريا إلى أن أصبحت عاصمة رومانية لم يزل إشعاعها متزايدا في ربوع المغرب. والتأثير البونيقي الذي استمر قرونا وقرونا لاح خاصة في تبسة وقالمة وقسنطينة وجهة عنابة. أما تأثير قرطاج الرومانية فإنه عم شيئا فشيئا المغرب كله.

وقد أنشأ استعمار الإمبراطورية الرومانية عواصم أخرى إلى جانب قرطاج. ففي نوميديا حيث تحول البدو الرحل إلى فلاحين بفضل سياسة مسينسا الحازمة ورثت رومة عاصمته سيرتة وهي قلعة رائعة تحميها مهاو وعرة لكنها متصلة اتصالا يسيرا بمواني نوميديا ومدنها الكبرى. وأسس هذا الاستعمار أيضا في أواخر القرن الأول بعد المسيح موطن سطيفيس (Sitifis) الذي أصبح بعد قرنين أهم مدينة لمقاطعة موريطانيا السطيفية. وقد شيدت سطيف على سهل فسيح يفصله عن البحر جبل بابور في عصر كانت سطيفيس أولا وبالذات سوقا ومدينة إدارية وفي عصر وضعتها السلم الرومانية في مأمن من الأخطار.

أما عاصمة موريطانيا فهي عاصمة يوبا الثاني القديمة وتسمى قيصارية(Caesarea) (شرشال) وكان الميناء المستند إلى جبل خاضع لسيطرة الأهالي متصلا اتصالا هينا

بالمتيجة دون الجهات الغربية والجنوبية، بفضل الوثبة الفنية التي مكنها منها يوبا والإدارة الرومانية. وقد تمتعت هذه المدينة بهيبة عظيمة طيلة أربعة قرون.

ولم يشعر الوندال ولا البيزنطيون بضرورة تأسيس مدن أخرى. أما الغزاة فقد أرادوا بالعكس بناء معسكر يستعملونه قاعدة لمواصلة غزوهم. فبنوا القيروان من لا شيء في قلب البلاد التونسية بالسباسب بين البحر والجبال. واندثرت قرطاج أثناء المحنة، لكن الحضارة التي كانت تمثلها بقيت. فبالقرب منها وعلى أنقاض مدينة تونس (Tunés) العتيقة ازدهرت مدينة تونس الجديدة، فعلا شأنها علوا كبيرا في القرن الثامن بفضل موقعها في نهاية بحيرتها وفي مأمن من الهجومات البحرية.

وقد شاءت الدول التي قد يطول عمرها أو يقصر والتي تساوقها تاريخ المغرب في القرون الوسطى أن تؤسس عواصم خاصة بها تأكيدا لوجودها الذاتي فهي إما أحيت مدينة كانت موجودة من قبل أو اختارت مكانا بكرا حيث خططوا ما طاب لهم أن يخططوا. غير أن مصير هذه المدن لم يمكن دائما قدر واحد من الإشراق. فتلمسان مدينة بوماريا (Pomaria) العتيقة التي جددها الأدارسة والمرابطون وعاصمة بني عبد الواد وبني مرين (من القرن الثالث عشر إلى الخامس عشر)والتي ظلت زمنا طويلا أكبر مدينة في الجزائر الغربية تنازلت لفائدة (Présidio) زعامة وهران القديمة ولم تبق من عاصمتي بني حماد: بجاية والقالة إلا مدينة صغيرة نيطت إلى منحدرات جميلة الموقع بالنسبة للأولى (القرن الحادي عشر) وأطلال متداعية مشرفة على مهواها بالنسبة للثانية وأصبحت تاهرت الرستمية أو الاشير الصنهاجية مجرد ذكريات. ولم تعد المدن تستمد أسباب وجودها وبقائها حيث حدود السباسب أو التل. فالمركز التجاري البونيقي الذي أصبح فيما بعد ايكوزيوم (Icosium) الرومانية ثم الجزائر العاصمة التركية هو الآن الجزائر الفرنسية أي المدينة الرئيسية لبلاد الجزائر كلها.

4 - تاريخ قبائل:

لم تعرف بلاد البربر قط عاصمة قارة نهائية. ولم يتح لها البتة أن تحقق وحدتها حول عاصمة ما. وقد علل الباحثون ذلك بالتجزؤ الجغرافي وصعوبة الموصلات وانعدام الأودية الواصلة بعضها إلى بعض وعدم صلاحية الأنهار، وعداء البحر، وقلة الأراضي النافعة. كما عللوه بانعدام مركز طبيعي يفرضه وضعها الجغرافي. ولربما يجب أكثر من ذلك أن نذهب مذهب أ. ف. ڤوتية الذي يلاحظ سرعة الغزوات وقلة ثباتها في نفس الوقت، فنحمل المسؤولية على الصراع الدائم بين البدو والحضر الذي لم ينته بفوز واحد على

الآخر فإن هذه الثنائية التي تعذر القضاء عليها هي التي تعلل في الظاهر كيف أن بلاد البربر كان لها دائما "أسياد أجانب". ولعله من الواجب أيضا أن نأخذ بعين الاعتبار أكثر مما اعتاده الباحثون الخلافات التي تجد بين أهل الجبال وأهل السهول. وهي خلافات يقويها بطبيعة الحال تجزؤ البلاد.

والذي يدرس بلاد المغرب لا يجد ممالك تتسع شيئا فشيئا إلى أن يعم سلطانها البلاد قاطبة، بل قبائل يوحدها زعيم جريء تؤسس ملكا بفضل غزوة جبارة، ثم تنهار تحت ضربات كتلة أخرى من القبائل. فليست المدينة أو التراب بالمقومين للوحدة الأساسية إنما المقوم هو القبيلة منفردة كانت أو متحدة مع جاراتها. ولا نعرف عن الحياة الداخلية لهذه القبائل شيئا يذكر، وأحيانا نجهل حتى وجودها. لذلك ليس شيء أدعى إلى خيبة الظن من تاريخ المغرب هذا الخالي من التواريخ المضبوطة والمكتوب بضربات السيوف. ولا مهرب للباحث مهما حاول من الاكتفاء بتاريخ الوقائع الحربية بسبب فقدان الوثائق. وإذن فهو معذور على غرار الشيخ سيلان إذا هو ترك إلى حد ما العنان لحماره عندما اعترضته شوارع جديدة. ولم يتمخض عن أحلاف القبائل شيء دائم بالرغم عن أن بعض الملوك الأصيلين كانوا مرموقين. والحال أن الأهالي كانوا يعلمون أنهم شعب واحد بما أنهم يطلقون على أنفسهم اسما واحدا، وكاد البربر في مرتين اثنتين أن يحققوا بوسائلهم الخاصة وحدة المغرب: الأولى في عهد العاهل (أغليد) مسينسا في القرن الثاني قبل المسيح، والثانية في عهد الدولة الصنهاجية في القرن الحادي عشر بعد المسيح وأخفقت هاتان التجربتان بمشيئة رومة الاستعمارية وبسبب زحف بني هلال. فاستنتج الباحثون من ذلك أن نجاح الوحدة مستحيل والحال أن البربري أبعد من أن يمثل نموذجا بشريا منقوصا، بل إنه أكثر من ذلك برز في شخصيات ممتازة ولكن بعضهم أكد أن هذا "الجنس المتمتع بحيوية لا تنضب ليست له شخصية إيجابية " وأنه يكتفي حتى في أبسط الأشياء بدور " الظل الأبدي" وأن المشكلة التاريخية ترجع إلى معرفة كيف "أن الخيبة المطلقة كانت نتيجة لتسلسل خيبات محدودة" (أ.ف. ڤوتية).

لقد رأينا أن البربري لم يصب بنقص جنسي، ولكن لعنة جغرافية نزلت عليه. لقد كتب أ.ف. ڤوتية في قوته المعهودة: "إن مدينة مستقلة بذاتها وفنا وأدبا وحتى لغة وشعبا شاعرا بوجوده ودولة منظمة هذه كلها كماليات باهضة جدا رأسمالية، والمغرب لم يستطيع قط التحصيل عليها بمفرده. فهذه البلاد الصغيرة لم يكن لها الجهاز المادي الضروري لتقيم البنيان الاجتماعي والسياسي الذي هو أساس كل مدينة".

ليكن ذلك. لكن هل يجب أن نستنتج من خيبة المحاولات حتمية الخيبة، وفي هذه

الحالة ألا يؤول بنا الأمر إلى أن ندين كل احتلال أجنبي مآله المنطقي كارثة على غرار كل احتلال قبله؟ وما كانت تكون سياسة مسينسا والملوك الذين تولوا الحكم بعده لو أنهم استطاعوا أن يحافظوا على علاقات سليمة مع عالم البحر المتوسط ولم يصطدموا بالاستعمار الروماني. واحتفظوا بكامل طاقتهم لتنظيم المغرب؟ ولئن كانت بلاد البربر في حاجة إلى الاتصال ببلدان أخرى فقد لا يكون من الضروري أن نستنتج أن خضوعها كان أمرا طبيعيا. ويظهر أن في تكرار ذلك أكثر من اللازم محاولة لتبرير وضعية تعود علينا بالفائدة تبريرا علميا. فيجب أن نحذر مغبة نظرة ميتافيزيقية على التاريخ قد تبدو منسجمة انسجاما سهلا جدا مع الواقعية السياسية. فإن الكثير من الأحكام غير القابلة للتعقيب على فلاحي روسيا أو الأتراك أو الصينيين أو الهنود امتحنتها الأحداث أيما امتحان. فعلى المؤرخ إذن أن يجتنب الاستنتاجات النهائية. وأن يكتفي بتسجيل القليل الذي نعرفه عن ماضي بلاد البربر. وذلك من غير أفكار قبلية ومع الحرص على طرح المشاكل على الأقل. إذا تعذر حلها.



الباب الثاني

1 - عصور ما قبل التاريخ مشاكل ومعطيات

2 - تطور عصور ما قبل التاريخ في بلاد البربر

3 - الصخور المنقوشة

I - مشاكل ومعطيات:

1 - مشاكل ما قبل تاريخ إفريقيا الشمالية:

إن مؤرخ عصور ما قبل التاريخ إذا رام دراسة إفريقيا الشمالية وجد نفسه أمام مشكلتين أساسيين تتفرع عنها في آخر الأمر جميع المشاكل الأخرى فعليه أولا أن ينسق ويوفق بين المعطيات المتنافرة التي يمده بها علم طبقات الأرض (جيولوجيا) وعلم الحفريات القديمة (بلنتلوجيا) وعلم وصف الإنسان (انتروبولوجيا) وعلم الآثار. وعليه أن يربط بين النتائج التي انت هي إليها وبين ما وصل إليه علم ما قبل التاريخ من معلومات بالنسبة لأوروبا وإفريقيا والشرق المتوسطي. وبعبارة أخرى فإن عمله يقتضي ضبط تواريخ نسبية للمعالم التي خلفها الإنسان الأول ومقارنتها بالتواريخ التي حدد ج.دي موريتيي أصولها سنة 1869 بواسطة تصنيف النماذج الصناعية وقد عدلت منه طبعا الاكتشافات التي تمت بعد ذلك التاريخ تعديلات ملموسة.

والعناصر التي يستمدها علم ما قبل التاريخ من العلوم التي يضطر إلى تسخيرها لحاجاته لا تؤلف من سوء الحظ مجموعة متماسكة من حقائق قارة غير مقدوح فيها. ومن شأن الاكتشافات الجديدة أن تنقض دائما النظريات السابقة لأوانها حتما والتي ينتهي إليها الباحث بطبيعة بحثه. ورغم ذلك إن الاختصاصيين لا يتفقون عادة على نسق واحد وإن كان وقتيا. ومعنى هذا أن مؤرخ عصور ما قبل التاريخ يقيم بناءه الضعيف على أرض لا استقرار لها - مثله كمثل منازل اليابان يهددها الزلزال دائما.

فإذا كانت هذه هي ظروف البحث بالنسبة لعلم ما قبل التاريخ، فإنه من اليسير أن نعرف أسباب التضارب الموجود في كثير من الأحيان بين شتى الافتراضات التي ينتهي إليها هذا العلم. ويتعذر اليوم كما تعذر سنة 1930 أن نقرر نتائج نهائية في هذا الباب. لذا سنكتفي، كما فعلنا منذ عشرين سنة، بضبط الحد الذي وصلت إليه المناقشات. إلا أن الحلول الحالية قد تكون أثبت من سابقاتها. وهذا ناتج أولا عن أننا واصلنا بحوثنا منذ عشرين سنة بإفريقيا الشمالية وخاصة بالمغرب الأقصى، وثانيا عن أننا اجتنبنا زيادة في التحري محاولة ربط عصر ما قبل تاريخ بلاد البربر ببقية العالم بصلات تبين ضعفها

كم من مرة. لذلك سيجد القارئ في هذا الكتاب مجموعة من المعلومات هي تحليلية أكثر منها تأليفية.

ويبدو أن المظهر الجغرافي للبلاد لم يتغير تغيرا محسوسا منذ أن دخلت بلاد البربر التاريخ أي منذ أواخر الألف الثانية قبل المسيح تقريبا وقد استمر بطبيعة الحال التأثير اليومي للانجراف والترسب معا، في سرعة غير مشعور بها، ولكنه لم يغير إلا القليل من مظهر الأرض هنا وهناك، كما وقع في مصب نهر السيبوز ومصب نهر مجردة. أما الحجج التي تزعم إثبات تغيرات مستوى البحر في عصور التاريخ فقد أقيم الدليل على أنها مجرد خيالات.

وفي الواقع لم يتغير المناخ هو أيضا وربما كان أكثر رطوبة مما هو عليه اليوم بسبب تضاؤل النبات- نقول ربما، وفي الواقع لم تقم حجة جديدة ضد نتائج بحوث ستيفان قزال (St. Gsell) المؤيدة لاستقرار مناخ إفريقيا الشمالية منذ 3000 سنة على الأقل.

أما في عصور ما قبل التاريخ، فقد كانت بلاد البربر تختلف عما هي عليه اليوم اختلافا قوى كلما اقتربنا من أوائل تلك العصور فالإنسان الأول الذي ظهر في إفريقيا الشمالية، أي أقدم إنسان عثر على أثر له إلى هذا اليوم، عاش منذ ثلاثمائة أو أربعمائة ألف سنة تقريبا. والثلاثون أو الأربعون قرنا التي يذكرها إنسان هذا العصر بصورة تتفاوت وضوحا تبدو متواضعة للغاية بالنسبة إلى ماضي البشريات المتعاقبة المدهش. إلا أن نفس المنظر الطبيعي لم يزل يشاهد أطوارها المختلفة. أما في عصور ما قبل التاريخ فإن المدنيات هي التي تبدو بالعكس قارة بالنسبة للطبيعة المتبدلة. والبشر الذين نجد آثارهم في الأحافير(Fossilles) تأملوا مناظر طبيعية تختلف عما نراه اليوم. ومظاهر التضاريس وخاصة السواحل لا تماثل ما نجده اليوم. والمناخ خاصة وبالتابع المياه والنبات والحيوان المتأثر بأحوال المناخ جميعها لم تكن على ما أصبحت عليه اليوم. فالذي ينتظره مؤرخ ما قبل التاريخ من الاختصاصيين الآخرين هو في آخر الأمر أن يمكنوه من ربط مصير الأجناس المنقرضة بتقلبات العوالم الميتة. فإلى أي حد هذا ممكنا الآن ؟.

2 - معطيات الجيولوجيا:

إن علم طبقات الصخور الخاص بالحقبة الرباعية البحرية وهو المرجع الوحيد لمؤرخ ما قبل التاريخ في دراسته لإفريقيا الشمالية يعتمد في خطوطه الكبرى على التصنيف الذي وضعه ش.ديبري (Ch. Depert) منذ ما يقرب من ثلاثين سنة. ويقوم هذا التصنيف على وجود شواطئ متحجرة في مواضع مختلفة من البحر المتوسط، ويكتشف الباحث

هذه الشواطئ في مستويات معينة أو يزعم أنها معينة ويجد فيها بقايا حيوانات متماثلة. أما اختلاف هذه المستويات فيعزى إلى حركات استاتيكية (Eustatique) ناجمة عن ظواهر التجلد والذوبان. وكاد الباحثون أن يجمعوا على التناسب الآتي:

1 - الصقلي (90 100- م) يناسب آخر عصور ما قبل الجليدي.

2 - ميلازي (55 - 60 م) يناسب عصر ما بين الجليدي قونز(؟) مندال.

3 - التيريني (28 - 30 م) يناسب عصر ما بين الجليدي مندال- ريس.

4 - المنستيري أو قريملدي(15 - 20 م) يناسب عصر ما بين الجليدي ريس- ورم

5 - والعصر الحالي ما بعد الورميني أو ما بعد الفلاندري بحسب رجوعنا إلى التجليد الأخير أو الفيضان البحري الذي تبعه.

لكن هذا التخطيط الذي يرتاح إليه الكر أيما ارتياح لم يلاق من سوء الحظ إجماع علماء الجيولوجيا، بل يمكن القول بأن أغلبهم يرفضونه اليوم. ففريق يأبى أن يقر الترابط المشار إليه آنفا بين مختلف مستويات المميزة للساحل المتوسطي وبين عصور ما بين الجليدي، خاصة وأن التجلد الذي قرره قونز مشكوك في صحته عند الكثيرين، وفريق آخر أشد احترازا من الأول لا يكتفي بمهاجمة نتائج بحوث ش.ديبري وأتباعه فحسب، بل ينتقد الملاحظات التي تعتمد عليها هذه النتائج. وحتى الذين يقبلون التخطيط جملة فإنهم يعترفون بأنه يوجد فيه بعض المتناقضات التي كثيرا ما تنال من مدلوله العام. فكيف يمكن لعلم ما قبل التاريخ أن يقرر، على أسس مشكوك فيها إلى هذا الحد، تواريخ نسبية لم يقدح أحد من قبل في صحتها ؟ وبالإضافة إلى ذلك فمن الواجب أن نؤكد أن علم الجيولوجيا تنتهي مهمته المتواضعة أو تكاد حينما نصل إلى العصر الحجري القديم.

وتصنيف ش.دي بيري -و إن أصبح مجرد افتراض للبحث بصورة وقتية على الأقل- فإنه إطار مناسب يمكن أن نسجل فيه المعطيات الخاصة بالعصر الحجري القديم أو المعطيات الأثرية على أساس أنها مجرد إمكانيات. وترجع أقدم آثار للإنسان في المغرب الأقصى في الحد الذي بلغته معلوماتنا، إلى عصر ما بعد الصقلي وما قبل الميلازي حسب نظرية أبداها أ.نوفيل وأ. رولمان وتبناها الأب هـ.بروي. أما في الجزائر فإن بعض المعالم يجب إرجاعها حتى إلى الفيلافرانشي حسب الاكتشافات الحديثة التي قام بها س.أرمبورغ في عين الحناش بجهة سطيف. إلا أن الإجماع لم يحصل حول هذه النقطة أيضا وبقى باب

المناقشة مفتوحا بين أنصار التواريخ "المحدودة" أي الذين يجعلون أوائل العصر الحجري القديم في ما بين الجليدي ريس- ورم وأنصار التواريخ "الممتدة" الذين يجعلونها في عصر ما بين الجليدي قونز- مندال.

وحتى لو ذهبنا مذهب أ. رولمان في تناسب "الكلاكتو- أبيفلي" مع عصر ما بين الجليدي " قونز ميندال "و "الابيفيلي" (شيلي) مع عصر ما بين الجليدي "مندال-ريس" والآشولي وهو معاصر تقريبا للموستيري السفلى" ويناسب عصر ما بين الجليدي "ريس-ورم" فإن ذلك لا يعني أن هذا التناسب يصح على إفريقيا الشمالية كلها. فلم يتيسر ضبط طبقات الصخور إلا بفضل ما اكتشف في مقطع سيدي عبد الرحمان بالقرب من الدار البيضاء - إلا أن أسس هذا الضبط نفسها مشكوك فيها كما سبق أن أسلفنا. والذي تمتاز به بلاد البربر هو "التفوق المطلق" لمراكز السطح التي توجد فيها معالم ما قبل عصور التاريخ....

3 - معطيات علم العصر الحجري القديم (باليونتولوجيا):

بالرغم من أن معطيات البلينتولوجيا أقل فيما يتعلق بضبط التواريخ من معطيات الجيلوجيا فإنها تمتاز بأنها أصح. وهناك أمر رئيسي يبدو ثابتا هو استمرار نوع واحد من الحيوان في إفريقيا الشمالية طيلة غالب الحقبة الرباعية - وهو نوع من حيوان البلدان الحارة الرطبة له خصائص النوع "التشادي-الزمبيزي". والأجناس التي تدل على وجودها أحافيرها (Fossiles) المخلوطة بآلات العصر الحجري القديم هي الفيل (Elephas atlanticus) وفرس البحر (hippopotamus amphibus) والكركدن (rhinocéros simus) والبقريات، والزرافات والظباء والنعام ولم يعثر على الأيلات والحيوانات اللبونة آكلة اللحوم إلا ابتداء من العصر الحجري المتوسط (موستيري) وهي أجناس نزحت من الشمال وأعطت الحيوان في المغرب صفة الاختلاط هو حيوان إفريقي أوروبي آسيوي في نفس الوقت ولكن دخول هذه الأجناس الأوروبية التي دفعها إلى الجنوب تفاقم المناخ الناتج عن أحد التجلدات (قد يكون تجلد "ريس") لم يستمر بعد العصر الحجري المتوسط بسبب انفصال إفريقيا عن أوروبا.

وهذا الانفصال مضافا إلى تناقص تبادل الحيوان مع جهات إفريقيا المدارية والاستوائية إلى حد التوقف عند انتصاب الحاجز الصحراوي هو الذي سيعطي حيوان إفريقيا الشمالية صفة الحيوان "المنعزل" "المتبقي". وإن هذه الميزة تظهر منذ العصر الحجري القديم وهذا النوع من الحيوان سيتطور شيئا فشيئا من نوع الحقبة الرباعية إلى النوع

الحالي وذلك باضمحلال بعض الأجناس (س.أرمبوغ). وتنحصر أجناس الحيوان الجديد التي ظهرت فيما بعد في بعض الحيوانات الآهلة كالحصان في الألف الثانية، والجمل قبيل حقبتنا على أغلب الظن. أما زوال بعض الأجناس فيظهر أنه كان من عمل الإنسان وحده. فعمليات الصيد الكبرى في عصور ما قبل التاريخ وحاجات الجيوش القرطاجية ومتطلبات الملاهي الرومانية خاصة تبين بيانا كافيا لماذا لم يبق هذا الجنس أو ذاك إلى يومنا هذا. ومنذ القرون الأولى من حقبتنا أصبح الفيل مجرد ذكرى. أما النعام فقد تبقى حتى القرن السابق في جهة "داياس" ولم ينقرض آخر أسد من أرض يوبا إلا في نفس العهد وقد قال هوراس: "Léonum arida nutrix (Horace, ode i, 22,15-16)".

وإن تشابه شكل الحيوان في الحقبة الرباعية من جهة، وخصائصه المكونة من جهة أخرى تسمح للباحث بأن يقرر أن المناخ بقي حارا رطبا حتى العصر الحجري القديم الأعلى على الأقل. ومما لا شك فيه أن هذا المناخ لم يكن متشابها دائما. وقد تكون أغزر الفترات أمطارا قابلت مختلف فترات التجلد. إلا أن تواضع ظواهر التجلد في أطلس المغرب الأقصى -وهي الجهة الوحيدة من بلاد البربر التي لوحظ فيها هذا الأمر- يكفي لإقامة الدليل على أن المناخ في نفس هذه المدة لم يكن شديد البرودة. ويجب من جهة أخرى ألا نتصور بلاد المغرب في عصور ما قبل التاريخ على نحو ما نرى الكنغو اليوم مثلا. وإذا كانت مياه وديان الحقبة الرباعية، وخاصة وديان الصحراء، أغزر بكثير مما هي عليه الآن فإنه من المستبعد جدا أن خضعت هذه الوديان لظاهرة التناوب بين غزارة المياه وجفافها أو على الأقل قلتها المفرطة. ولم يتطور المناخ نحو الجفاف إلا في عصر ما بعد المنستيري أو إذا أردنا العصر العتيري. والدراسات التي تناولت فحوم أحافير الحقب الأولى في جهة تبسة أظهرت أن العصر القفصي الأعلى تطور في كنف مناخ شبيه بمناخنا شبها كبيرا. وشأن النبات كشأن الحيوان هو يتغير بعمل الإنسان لا بتأثير الطبيعة. فتعمد قلع الأشجار وتوسيع مناطق الزراعة وكذلك نمو الحياة الراعوية كلها أساسية لانجراد بلاد المغرب.

4 - معطيات النتروبولوجيا:

يحسن أن نقف عند أحد أنواع الحيوان أعني الإنسان. ولا يوجد إلى اليوم أية وثيقة أنتربولوجية يمكن معها رفع جهلنا للإنسان الأول الذي عاش على أديم إفريقيا الشمالية، وآلاته وحدها هي التي دلت على وجوده، إلا أن بعض الاكتشافات الحديثة ألقت أضواء بالغة الأهمية على البشرية التي كانت تعيش في المغرب الأقصى الحالي أثناء العصر الحجري المتوسط. ولندرس أولا إنسان الرباط؛ فبالرغم عن أن الأجزاء المكتشفة سنة 1933 لا

تتعدى في الواقع قسما من الفك العلوي مع القسم الأمامي من الفك السفلي. فإنها تسمح بأن نؤكد أننا أمام شاب صغير (عمره 16سنة تقريبا) له خصائص جنس عريق في البدائية. ويجب أن نضع إنسان الرباط بالنسبة إلى تطور الجنس البشري مع إنسان نياندرتال (Néanderthal) إن لم يكن أقدم منه باعتبار بعض الخصائص التشريحية التي تقربه من السيننتروب (Sinanthrope). ورغم أن علماء الجيولوجيا لم يتفقوا على سن الحجارة الرملية التي وجدت فيها هذه الأجزاء فإنه يبدو من الجائز أن نعتقد أن إنسان الرباط معاصر للموستيري وربما كان أقدم منه-وأن نفس الخصائص النياندرتالية ونفس دلائل البدائية هي التي نجدها في البقايا البشرية المكتشفة منذ سنة 1939 بطنجة (في مغارة العالية على بعد 13 كلم في الجنوب الغربي من هذه المدينة). وأن الحفريات التي لا تزال متواصلة لا تسمح إلى حد الآن بأن نستنتج بوثوق الدور المضبوط الذي يجب إسناده إلى هذه الآثار في علم الطبقات بالنسبة إلى العصر الحجري المتوسط. إلا أنه يبدو أن سنها لا يزيد كثيرا عن سن إنسان الرباط.

فوجود جنس النياندرتاليين أو جنس شبيه به على الأقل في إفريقيا الشمالية أصبح اليوم أمرا ثابتا. لكن بالنسبة للجزء الغربي من البلاد فقط لحد الآن. ويجب أن نلاحظ أيضا أننا لا نعرف شيئا عن أصل هذا الجنس ولا عن مصيره بعد العصر الحجري المتوسط. فالحلقة المفقودة من الواجهة الانتروبولوجية هي بين العصر الحجري المتوسط والعصر الحجري الأعلى. ويطلق عامة على إنسان العصر الحجري الأعلى اسم إنسان مشتى العربي. وهو اسم "المحلزة " (Escargotière) القريبة من شاتودان دي رومل (قسنطينية) التي أكتشفها ج.مرسيي سنة 1907. وقد تعددت الاكتشافات منذ هذا التاريخ خاصة في مقاطعة قسنطينة. وأهمها من دون شك تلك التي وفق إليها س.أرمبورغ في مغارة " أفالوبورمال" على بعد 30 كلم شرقي بجاية. والحفريات التي أنجزت بين سنة 1927 و1930 كشفت معظمة بأتم معنى الكلمة. ومكنت الباحثين من أن يدرسوا ما يقرب من ثلاثين نموذجا عثر عليها في ظروف ينتفي معها الشك من حيث علم طبقات الصخور. وهي نماذج إنسان مديد القامة (معدل مترو 72) مستطيل الرأس أو متوسطه طويل الأعضاء. خشن الوجه بهيمي السحنة وخاصيته الرئيسية أن جميع نماذجه المعروفة قد قلعت القواطع من أسنانها.

ويبدو أن هذا الجنس عاش في إفريقيا الشمالية كلها. لأن آثارا له قد اكتشفت في الواجهة الأطلسية من المغرب الأقصى (دار السلطان بالقرب من الرباط) وخلافا لما كان يظن من قبل فإن هذا الجنس لا يرتبط فقط بإنسان نياندرتال. بل بالإنسان العاقل

(homo sapiens). وبصورة أدق فإن إنسان مشتى العربي يذكرنا بجنس "كرومانيون" (Cro-Magnon). ونماذج هذا الإنسان ليست من جنس واحد ولكنها تنحدر من فرع واحد أصله من القسم الشرقي من البحر المتوسط (بول فالوا) وهذا النموذج البشري الذي انتشر في عصر المحلزات (Escargotières) دام إلى ما بعد العصر الحجري الأعلى وحتى إلى العصر الحجري الحديث المنتسب إلى القفصي إذا اعتبرنا أن الغونش القدماء سكان جزر الكناري عاشوا في هذا العصر كما ذهب إلى ذلك ر.فيرنو. أما فيما يخص الآثار التي قد يكون خلفها هذا النموذج البشري في السكان البربر فإن ما انتهت إليه البحوث الأنتروبولوجية في إفريقيا الشمالية لا يسمح بأي افتراض جدي في شأنها. وكذلك لا نعرف شيئا كثيرا عن وجود عناصر زنجية في عصور ما قبل التاريخ ببلاد البربر. وإذا سلمنا كما يراه البعض بأن جنس قريمالدي (موستيري) أصله إفريقي فإننا نجهل هل هو انتقل إلى أوروبا من المغرب أم لا إذ لم يعثر إلى يومنا هذا على ما يشهد بوجوده في هذه البلاد. وأقصى ما يمكن أن نذهب إليه هو أن نتساءل: هل يمكن لإنسان " أسلار" الذي اكتشف هيكله سنة 1927 في وادي أحد روافد النيجر وهو التلمسي وله وجوه شبه كبيرة بإنسان قريمالدي وبالسكان الحاليين لإفريقيا الجنوبية. أن يدفعنا إلى الاعتقاد بأن السود تجاوزوا "منذ العصر الحجري المتوسط وربما العصر الحجري الأعلى" الحدود الشمالية للغابات الكبيرة. غير أنه يجب أن نلاحظ أن بعض الهياكل العظمية المكتشفة في بلاد البربر لها خصائص زنجية لا يمكن دحضها.

5 - معطيات علم الآثار:

وإذا مكنتنا الجيولوجيا والبلينتولوجيا من تصور الوسط الذي كان يعيش فيه إنسان ما قبل التاريخ ومكنتنا الانتروبولوجيا كذلك من تصور هذا الإنسان نفسه فإن الأدوات التي تركها وما يتبعها من أمتعة هي التي تلقي بعض الأضواء على مدينته. ومن سوء الحظ فإن علم آثار ما قبل التاريخ يخضع لظاهرة بعيدة الأثر من حيث نتائج البحث وهي أن غالب مراكز التنقيب سطحية ومعنى ذلك أن معطيات علم الآثار لا ترتكز بصفة عامة على علم طبقات الصخور. وهذا ما يعطي قيمة كبيرة للملاحظات التي يمكن تسجيلها في الحالات التي تسمح فيها التوبوغرافيا بتنضيد المستويات المتتابعة. ويدل على ضعف التواريخ التي لا تعتمد إلا على التشابه التيبولوجي. فإذا ذكرنا " الشيلي" و"الاشولي" و"الموستيري" في إفريقيا. فلا يعني ذلك أكثر من أن وجوه شبه فنية تسمح بالمقارنة بين أدوات إفريقيا الشمالية والأدوات الأوروبية المنسوبة إلى هذا الصنف. ولكن لا سبيل إلى استنتاج أي شيء يتعلق بأصل هذه الصناعات أو بتواريخها

ولم تسفر المجهودات التي بذلها ر.نوفي وأ.رهمان للمقابلة بين العصر الحجري القديم في المغرب الأقصى، والعصر الحجري القديم في أوروبا الغربية حسب تصنيف الأب بروي، إلى أي نتيجة ثابتة.

وكذلك لا شيء يسمح إلى حد الآن باعتبار المتماثلة أو المتشابهة المعثور عليها في تراب إفريقيا الشمالية متعاصرة. فقد تكون بعض الصناعات قد ثبتت بعد ظهور صناعة أخرى تلتها. وهكذا تدل الحفريات الأمريكية في طنجة على أنه يوجد في نفس المستوى عدد يكاد يكون متساويا من الشظايا الراجعة إلى العصر " اللفلوازي" ومن الأسنان الراجعة إلى العصر الموستيري. ويظهر أن مدينة العصر النيوليتي دامت في بعض جهات من بلاد البربر إلى أوج الحقبة التاريخية، وحتى إلى العهد الروماني، إذا اعتبرنا بعض الخصائص كبناء المصاطب مثلا ويذهب بعض مؤرخي ما قبل التاريخ إلى الاعتقاد بأن الصناعات الموجودة في إفريقيا الشمالية يمكن أن يكون غالبها صناعات متأخرة.

وليس من الصعب ضبط تواريخ الأدوات ضبطا نسبيا فحسب، بل كذلك معرفة تتابعها. فقد تكون الصناعات مجتمعة في جهة ومتفرقة في جهة أخرى وما نلاحظه من نقص أو شذوذ ليس إلا نتيجة لتسرع في ضبط طبقات الصخور. وهكذا فقد تمكن م. ريقاس من أن ينسب الأدوات المذنبة (pédonculées) إلى العصر "العتيري" أي العصر الحجري المتوسط، بينما نسبها ب. بلاري إلى العصر النيوليتي (بربري) أي أنه أمكنه أن يصل بين مستويين أثريين متتابعين. ويتضح مما سبق لماذا اضطر مؤرخو ما قبل التاريخ إلى استعمال ألفاظ مضطربة. والذي يجب اجتنابه هو أن يدل اسم واحد على مجموعة صناعات قد تكون متشابهة، لكن لا تتجاوز علاقاتها مجرد الشبه. ومن ذلك تعددت الوجوه تعددا غير موفق في بعض الأحيان خاصة أن بعض الأسماء قد تدل على نفس المسمى فليس وهراني هـ. بروي ور.فوفرى سوى الموريسكي-الإسباني المنسوب لب. بلاري، ولو سمى "مويي" لكان ذلك أفضل. "وقفصي ج.مورغان" حل محل "جيتولي ب.بلاري" وإن لم يختلف عنه قط. والذي يؤسف له هو وجود أسماء متولدة عن نظريات خيالية في بعض الأحيان ومن ذلك أن لفظة "مورسكي إسباني" كان يقصد منها تأكيد بعض العلاقات الأثرية بين غربي بلاد البربر وإسبانيا. ولكنه ثبت منذ ذلك الوقت أن هذه العلاقات ضرب من الأوهام. وإذا عقد هذا الاضطراب مهمة الاختصاصيين فإنه يجعل مهمة الذين يمهدون إلى دراسة ما قبل تاريخ إفريقيا الشمالية أشد دقة. وكم

نرجو أن يتم الاتفاق بين الاختصاصيين لا على الأسماء نفسها. إذ نكون بذلك كلفناهم أكثر مما يطيقون. بل في أقل على المبادي التي تعتمد في تسمية مختلف الصناعات.



II - تطور عصور ما قبل التاريخ في بلاد البربر:

1 - العصر الحجري الأدنى والمتوسط:

لقد ثبت أنه يوجد في إفريقيا الشمالية أدوات تماثل في فنونها وأشكالها الصناعات التي تعرف في أوروبا بالأسماء المألوفة الآتية: الشيلي والأشولي (بالنسبة للعصر الحجري الأدنى) والموستيري (بالنسبة للعصر الحجري المتوسط). وإذا استثنينا آثار ما قبل العصر الحجري القديم (éolithes) المنسوبة لشتمة (قرب بسكرة) وقفصه. فإن أقدم آثار للعمل البشري هي في الوقت الحاضر ما اكتشفه س.أرمبورغ سنة 1948 بالقرب من سطيف. أي ما يقرب من أرعين كرة حجرية ذات جوانب منحوته. ويلي ذلك الرحماني وهو اسم أطلقه ر.نوفيل وأ. روهمان على مجموعة الأدوات المكتشفة بمقطع سيدي عبد الرحمان بالقرب من الدار البيضاء. وهي أدوات توجد من حيث طبقات الصخور في أعلى الرواسب البحرية المنسوبة إلى العصر الصقلي، والمتشابهة خصائصها مع خصائص مجموعة الأدوات المنسوبة للعصر الكلكتوني أو الابفيلي أي الشيلي. وتعتبر مناجم المغرب الأقصى مواطن البحث عن العصر الحجري القديم الشمال الإفريقي لأهميتها في علم طبقات الصخور، لكن من دون أن تنسينا المراكز المكتشفة قبلها وخاصة مركز بحيرة القرار بشمال تلمسان الذي يستمد أهميته من وجود حيوان المناطق الحارة الفيل الأطلسي(éléphas atlanticus) والكركدن الموريطاني (rhinoceros mauritanius) وفرس البحر (hippopotamus amphibus) ومن صناعة منتسبة إلى العصر الاشولي في آن واحد.

لقد كان يظن بعض الباحثين مثل ج. موغان وب.بالاري أن الشيلي والاشولي والموستيري تكون صناعات ثلاثا "لا تمحى روابطها" وفعلا فقد اكتشفت في جهة قفصة آلات منتسبة لهذه النماذج الثلاثة المختلط بعضها ببعض. وفي مقطع "مارتان" بالقرب من الدار البيضاء نجد الشيلي والآشولي مجتمعين كذلك. وبات من المسلم به اليوم أن هذه الصناعات الثلاث ليست معاصرة بعضها لبعض، ولكنها تتابعت على النحو الذي توالت فيه بأوروبا. الاشولي يبدو مرحلة متطورة عقبت الشيلي. وفي كلتا الصناعتين نجد أن "الدبوس" هو الآلة الأكثر دلالة على ذلك العصر. لكن أشكالها البدائية في

أول الأمر كانت تحسنت شيئا فشيئا من جهة، وتنوعت من جهة أخرى. طيلة العصر الاشولي وحل ر.فوفري على ما يظهر المشكلة المطروحة من سنة 1887 بعد التنقيبات التي قام بها م.كلينيون في جهة قفصة فأثبت أن اهتزازا تكتونيا هو السبب في تضارب الموستيري والاشولي.

ويظهر أن "الموستيري" المتأخر عن "الاشولي" بفترة قد تكون طويلة لم يتفرع عن المصنوعات ذات الوجهين التي كان متوجها لها بل تفرع عن نموذج يختلف اختلافا كبيرا عن المصنوعات المسماة بذات الشظايا وقد أطلق عليها اسم الفلاوزية:(Le valloisien) وأهم خصائص هذه الأدوات "الموستيرية" كالأدوات الحادة والمكاشط تمكن أولا وبالذات في فن نحتها وفي مدى حرص أصحابها على فن التشذيب.

ويظهر أن النماذج الموستيرية تطورت إلى أشكال مذنبة (pédonculées) هي من خصائص "عتيري م.ريقاس" (Reygasse) (وهو اسم أخذ من مركز بير العتير في بلاد النمامشة بالجنوب الغربي من مقاطعة قسنطينة)والظاهر أنها هي نفسها تطورت في الصحراء بدون واسطة إلى أن أصبحت مصنوعات للعصر النيولوتي. لكنه يجدر أن نلاحظ أن الموستيري لم يتبع بصفة منتظمة الاشولي الذي يبدو أنه تطور في ظروف غامضة جدا إلى صناعة سماها م.ريقاس السبيخي (نسبة إلى برج السبيخة بجبل درامين في الجنوب الشرقي من مقاطعة قسنطينة) وهذه المصنوعات المتجسمة في أدوات حادة على شكل أوراق الشجر والشبيهة بالأشكال السولوترية (solutréenne) قد تكون هي الحد الذي انتهت إليه المصنوعات ذات الوجهين بإفريقيا الشمالية.

وبدهي أننا ندعي في هذه اللمحة تلخيص الآراء التي أجمع عليها مؤرخو ما قبل التاريخ تلخيصا أمينا. إننا حرصنا على تضمين ما اتفقوا عليه أكثر من تضمين ما اختلفوا فيه. فعندما ننظر في المشكل الرئيسي، وهو مدى هذا التطور في الزمان يتعذر الظفر بأغلبية يمكن الاطمئنان إليها. فالهوة سحيقة بين الذين يرون مع الأب هـ.بروي (H. Breuil) أن هذه المدة "مفرطة في البطء" وبين الذين يعتقدون مع م.بول (Boule) أنها قصيرة، وبعبارة أخرى بين الذين يعتبرون الشيلي معاصرا لتجلد قونز (Günz) وبين الذين يرون أنه معاصر للفترة الأخيرة من عصر ما بين الجليدي. وهكذا فالفرق يعد بمئات الآلاف من السنين. ومهما يكن الأمر فإنه يجب التأكد بأن مدة العصر الحجري الأدنى سواء في إفريقيا الشمالية أو غيرها طويلة جدا، لا بالنسبة لعصور التاريخ فقط، بل بالنسبة إلى العصر النيولوتي أيضا وحتى بالنسبة إلى العصر الحجري الأعلى (Paléolothique supérieur).

وإذا اعتبرنا جملة ما تعاقب من آلاف السنين الغامضة، وجدنا أن الإنسان قد مرت به ظروف غريبة. فنحن نجهل كل الجهل ما يتصل بالبشر الذين خلفوا لنا الأدوات الشيلية والآشولية. ولم تزدد صورة الإنسان وضوحا بالنسبة إلينا إلا في العصر الموستيري أو قبله بقليل عند اكتشاف إنسان الرباط: وهو شخص قصير القامة، عظيم الهامة، طويل الوجه، مفلطح الجمجمة محدود المدارك العقلية محروم علي ما يظهر من كل "المشاغل الجمالية والأخلاقية" (بول فلوا Boule-Vallois) شأن أمثاله من نياندرتاليين (néanderthaliens) إذ كان يجد ضرورات عيشه اليومي في طبيعة حارة رطبة تزدحم فيها حيوانات مخيفة. ولا شك أنه ليس من التهور أن نعتقد أنه كان لا يخضع في آخر الأمر إلا إلى متطلبات غريزة البقاء.

2 - العصر الحجري الأعلى:

إن العصر الحجري الأعلى بإفريقيا الشمالية تمثله مراكز يفوق عددها بكثير مراكز العصر الحجري الأدنى، خاصة إذا نحن كما يشاء البعض، (R. Vaufrey, A. Ruhiman) أدخلنا ضمنه العتيري الذي يقحمه آخرون في العصر الحجري المتوسط (مثل ريقاس Reygasse) والذي تكثر مظاهره في البلاد جميعها. وليس معنى هذا أن كثرة الوثائق هي التي ساهمت في حصول الاتفاق بين الاختصاصيين بل يمكن أن نذهب إلى عكس ذلك. غير أنه يظهر أن أمرا وقع التسليم به: وهو وجود "مقاطعتين" أثريتين تمثل الأولى القفصي والثانية الموبي الذي هو ليس سوى "مظهر جانبي" للأول. ومن غير شك لا يمكن إثبات المعاصرة المطلقة للصناعات التي يختص بها هذان الطوران غير أنه من المرجح على الأقل أنها تفاعلت إلى حد ما على مر الدهور.

وكلمة القفصي مأخوذة من مراكز واقعة بجهة قفصة (باللاتينية كبسة Capsa) في الجنوب الغربي من البلاد التونسية حيث لاحظ ج. مرغون (J. de Morgan) وجود الطور القفصي الأول مرة وأهم مركز يمثله هو مركز المقطع. وهو معروف كذلك باسم آخر نبذه اليوم الباحثون بصفة عامة وهو الجاتولي (ب.بلاريP. Pallary). ورقعة انتشاره هي جنوب التونسي وخاصة جهة قفصة بالذات، وجنوب مقاطعة قسنطينة. غير أن اكتشافات حديثة بينت أن حدوده الجنوبية لا تتفق مع الحد الشمالي للصحراء كما كان يظن. ويظهر أن منطقة الصناعات القفصية كان لها إشعاع منذ الطور القفصي الأعلى في بلاد المغرب بحيث نجد أنفسنا أمام نوع من الاستغلال الذي يتوغل في الجهات المتاخمة ويؤثر في الصحراء حتى قبيل العصر الحجري الحديث.

إن القفصي هو فترة "المحلزات " (Escargotières) أولا وبالذات. وأطلق عليها هذا الاسم لاتابي (Latapie) على هضاب اصطناعية لا يتجاوز علوها عشرة أمتار ويمكن أن تبلغ أبعادها المتفاوتة إلى أقصى حدود التفاوت الخمسين مترا عرضا والمائة والخمسين مترا طولا. وهذه الهضاب تكونت بتراكم الرماد والأدوات والهياكل العظمية البشرية والحيوانية، وخاصة أصداف الحلزون التي منها اشتق الاسم الذي أطلق على هذه الهضاب. غير أنه يجدر أن نلاحظ أن مثل هذا التراكم المعقد يوجد في بعض الخبايا تحت الصخور كخبية كلاريون (l'Abri Clariond) قرب أم العرائس بالجنوب التونسي. وهذه الأجزاء المتنوعة تمثل ما تبقى من الخيمات والقرى القديمة. وتخص مجموعة الأدوات الموجودة في هذه الأمكنة بظهور الحجارة المنحوتة الدقيقة ذات الأشكال الهندسية والأزاميل الصغيرة التي تضخم عددها أثناء تطور العصر القفصي. وكثافة هذه "المحلزات" في بعض الجهات كبيرة جدا. فلقد اهتدى "لاتابي" إلى 42 "محلزة" في دائرة يقدر نصف قطرها ب30 كلم حول تبسة ودابروج (Debruge) على طريق "كرناي" بالجبل. كما اهتدى فورتاس (Fortas) إلى ست "محلزات" في مساحة قدرها 12 كلم. ويمكن أن نعد هذه "المحلزات" بالمئات بالنسبة إلى إفريقيا الشمالية كلها إذا لم يقارب عددها الألف.

وبينما نجد تشابها في العصر الحجري الأدنى بين نماذج أدوات إفريقيا الشمالية وأوروبا الغربية فإنه لم يلاحظ أن خصائص المصنوعات القفصية كانت توجد في مصنوعات السواحل الشمالية للبحر المتوسط. ولذا فإنه أصبح اليوم لا يعتد بالافتراض القائل بأن الاورينياسي (l'Aurignacien) هو من أصل قفصي. فالقفصي الأصيل، بمعنى القفصي الأدنى، لم يبلغ البتة البحر ولم يقدر على الوصول إلى صقلية وإيطاليا. أما أصوله فالأفضل أن يبحث عنها في مصر حسب ر.فوفري (R. Vaufrey) غير أن المقارنات من حيث التواريخ التي أمكن ضبطها بين القفصي وبين " سبيلي" (Sébilien)- جهة أسوان - ليست من الصحة بحيث تسمح بتجاوز الاحتمال إلى اليقين.

وإذا استثنينا جهة التلال المنفعة في وهران والجزائر، حيث تنتقل مباشرة من الموستيري أو العتيري إلى الحجري الحديث، فإن الجزء من إفريقيا الشمالية الذي لا يسيطر عليه القفصي أي الواجهة الساحلية منه هو من مشمولات "الموبي" (Mouillen) وقد اكتشف هذا الأخير لأول مرة سنة 1908في مويه (Mouillah) قرب مرنية غربي مقاطعة وهران. غير أن لفظة موبي بقيت قليلة الاستعمال وقد فضلت عليها قديما كلمة الإيبري موريزي(Ibéro-Maurusien) التي اقترحها ب. بلاري (P. Pallary) وعوضت الآن بكلمة وهراني التي تخيلها هـ.بروي (H. Breuil).

ولا بد أن تكون هذه الصناعة التي "لا يوجد أفقر منها" كما قال ر.فوفري شكلا متطورا من القفصي. وهي بالفعل قريبة جدا من القفصي الأعلى ولا تختلف عنه إلا "بانعدام الأدوات الحادة الكبيرة والمتوسطة ذات الحد الساقط (à dos abattu) وبقلة الحجارة المنحوتة الدقيقة ذات الأشكال الهندسية" (ر.فوفري) وبالعكس فإن الشفرات الصغيرة ذات الحد المقوس (à dos rabattu) هي أهم ما في هذه المجموعة من الأدوات. وهذا يدعونا إلى التفكير في أن هذه المدينة "القفصية" قد عمت شيئا فشيئا وخطوة خطوة معظم البلاد البربرية أو كادت وإن فن الصناعة الذي تمثله حل محل صناعات العصر الحجري المتوسط الموجود تحت "الموبي". ولقد أجمع الباحثون اليوم على رفض صحة العلاقات الأثرية بين هذه الصناعة وبين صناعات إسبانيا التي أريد من لفظة "ابيري موريزي" التعبير عنها.

ولا يمكن طبعا تحديد الفترة التي ولدت فيها وترعرعت المدنيات القفصية الموبية تحديدا مدققا. غير أنه لا بد أنها تلت نهاية فترة التجلد الأخيرة التي حصلت حسب جير (Geer) قبل المسيح ب 14000 سنة، ولا بد أنها سبقت من جهة أخرى النيوليتي الذي يظهر أنه عاصر الفترة التي تقدمتما قبل عهد الأسرات بمصر، وهي فترة انتهت حوالي سنة 3500 قبل المسيح. ولذا فإنه يستبعد أن نخطىء إذا قلنا: إن أكبر جزء من العصر الحجري العلى في إفريقيا الشمالية يمتد من سنة 10000 إلى 5000 قبل المسيح.

وأثناء هذه الفترة الطويلة جف المناخ شيئا فشيئا حتى وصل إلى درجة قريبة من الدرجة التي نعرفها الآن. ورغم ذلك فإن الفيل والبقر والغزال والكركدن والنعام بقيت تجوب الأرض المغربية. وبدون شك فإن جني الثمار والصيد هما اللذان كانا يأخذ القسط الأكبر من نشاط الإنسان. غير أن إنسان مشتى الغربي كان ينتمي إلى فصيلة الإنسان العاقل (Homo sapiens) فهو يجهل الحيوانات الآهلة، إلا أن المشاغل الجمالية لم تكن غريبة عنه إطلاقا، كما تدل على ذلك الأشكال الهندسية التي اتصفت بها آلاته، وكما تدل على ذلك النقوش التي يخطوها على قشور بيض النعام كنقش الحيوان المجتر الموجود بواد منقوب قرب أولاد جلال في مقاطعة قسنطينة، أو الأصداف المثقوبة التي كانوا يستعملونها للتجميل: وينزل هنا الإنسان في غالب الأحيان على مقربة من الوديان أو العيون، وتوجد منازله التي يعيش فيها عيشة الحضر حتى في الجبال كما تدل على ذلك اكتشافات أ. روهمان في الأطلس المتوسط.

3 - العصر الحجري الحديث:

إن العصر النيوليتي في إفريقيا الشمالية نتيجة اتصال التقاليد المحلية بما ورد من الخارج. ومعنى هذا أن بعض العناصر التي هي في الحقيقة من العصر النيوليتي كالأدوات المصقولة والآنية الخزفية قد اختلطت بأشكال القفصي والموبي المتطورة. ولقد اقترح ر.فوفري، وله الفضل في اكتشاف هذا الاتصال أن نميز بين عصر نيوليتي ذي تقاليد قفصية هو بدوره منبثق عن القفصي المثالي بواسطة ما يسميه هو ما بين القفصي والنيوليتي، وبين النيوليتي الموسوم بالطابع الوهراني هو نفسه عن الموبي.

ولا شك أن العهد النيوليتي الشمال إفريقي حديث العهد نسبيا. ويظهر أنه لا يسبق بكثير الأربعة آلاف سنة قبل المسيح وأنه امتد إلى قلب العصور التاريخية. فانعدام فترة انتقالية تالية للعصر النيوليتي هي بالفعل من خصائص ما قبل التاريخ في إفريقيا الشمالية ولهذا فإن الفينيقيين أسسوا مراكزهم التجارية الأولى في عالم ذي مدينة نيوليتية. والصحف التي خصصها هيرودوت لإفريقيا تلتقي هنا وهناك أضواء خاطفة على ذلك. غير أن ربط بلاد البربر بعالم المدنيات المتوسطية لم يكن على ما يظهر نتيجة الانفصال التام عن العادات العريقة في القدم. فلاشك أنه استعملت سهام من الحجر مدة طويلة بعد ذلك. وكذلك لم تهجر الملاجئ النيولوتية فجأة واستمر السكان إلى قلب العهد الروماني على ما يظهر يرصفون صخرة على صخرة لبناء مساكنهم وهي المصاطب(dolmens).

وأثناء العصور النيولوتية أخذت طبيعة إفريقيا الشمالية تقترب شيئا فشيئا مما هي عليه الآن فتفاقم جفاف المناخ وتغيرت " الفونا". فاختفى فرس البحر والفيل الأطلسي وأصبح وجود الكركدن نادرا جدا وأصبحت الأيلات هي الأجناس المختصة بهذا العصر. وأخيرا ظهرت الحيوانات الآهلة وخاصة الفرس والكلب. والسكان هم أما من آخر أحاد إنسان مشتى العربي أو الممثلون الجدد للجنس المتوسطي فلم تحدث في ذلك الوقت أية ثورة جنسية غير أننا كثيرا ما نعاين من وقت لآخر تأثير عناصر زنجية بالجنوب التونسي في "الرديف" مثلا. وتغيرت الحياة الاجتماعية، وظهرت الفلاحة ونمت. وإن بقيت صناعة الحجارة هي الصناعة الأصلية فلم تعد هي الوحيدة، وتحسنت شيئا فشيئا. وحلت أدوات الحجارة المصقولة، وخاصة الفأس، محل أدوات الحجارة المنحوتة. وتكاثرت مع مرور الزمن الأمتعة المصنوعة من العظام، وظهرت خاصة آنية الفخار بدائية بعيدة عن الجودة إلا أنها تشهد باعتناء أصحابها بالناحية الجمالية. فلقد بقيت آثار الزخرف على الأجزاء القليلة التي نعثر عليها كالخطوط والحواشي الحمراء أو الرسوم المقتضبة

المخدومة بالأظافر والأشواك. ويظهر أن بلاد المغرب عرفت في هذا العصر حتى فن صنع التماثيل الشبيه بما نجده في الصحراء إذا نحن عددنا كما فعله م.ريقاس(M. Reygase) أصنام " تابل بلات" ذات الرؤوس الآدمية في الصحراء الشرقية من العصر النيوليتي. وعلى كل فإن مساكن الحجارة الكثيرة في غربي البلاد التونسية وفي مقاطعة قسنطينة (يوجد أكثر من عشر آلاف مسكن حول "سيغوس" في الجنوب الشرقي من قسنطينة) والملاجئ المقامة على المشارف كالتي نجدها في أعلى منحدرات واد "باث" تشهد بأننا إزاء مرحلة أولى للفن المعماري (أ.ب. روهمان).

وليس هناك من شك في أن بلاد البربر تدين لمصر بأكبر قسط من هذه التغيرات. ويظهر أن المراكز الصحراوية مثل مركز عبد العظيم في الجنوب الغربي من العرق الكبير تدل على أن الصحراء كانت همزة وصل بين إفريقية الشرقية وبلاد البربر وكذلك بالنسبة لوجود (spatha nilotica) في تيديكالت (Tidikelt) إلا أنه يرجح أن الصلات بأوروبا وخاصة إسبانيا تمتنت أيضا. والتشابه بين آنية "أشاكر" الخزفية (رأس سبرتال) وبين بعض الآنية الخزيفية الإسبانية يصعب عده مجرد صدفة.

III - الصخور المنقوشة:

1 - صخور إفريقيا الشمالية المنقوشة:

خلف لنا الأفارقة الذين عاشوا في عصور ما قبل التاريخ زيادة على آلاتهم وبقايا مآكلهم صخورا منقوشة يسميها الأهالي "الحجرات المكتوبة" وكانت هذه الحجارة موجودة بكثرة في عدة جهات من إفريقيا الشمالية مادة للأبحاث التي قام بها ج. ب. فلامون (J. B. Flamand) مدة أربعين سنة. إلا أن الاكتشافات والنشريات تعددت منذ سنة 1921 وهو تاريخ ظهور كتابه (Les pierres écrites) "الحجارة المكتوبة" الذي أصبح مرجعا مألوفا منذئذ. والمشاكل التي أثارها من حول هذه النقوش ومواضيعها وتواريخها كانت محل بحث أ. ف. فوتيه (E. F. Gautier) وهـ.بروي (H. Breuil) وم.ريقاس. وتهـ. مونود (Th. Monod) بالنسبة لجهات من الصحراء مختلة وب. قرازيوزي (P. Graziosi) ول.فروبنيوس (L. Frobenius) بالنسبة لليبيا وم. سوليناك (M. Solignac) بالنسبة لبلاد البربر الشرقية ور.فوري (R. Vaufrey) بالنسبة لجنوب وهران. وإذا كانت قائمة هذه الصخور المنقوشة لم تكتمل بعد اكتمالا كليا فإننا نجد بين أيدينا جملة وثائق كافيا لتمكيننا من بحث إجمالي.

ومنذ ظهور دراسات ج. ب.فلامان نتبين ثلاثة أنواع من النقوش: ففي الأولى -التي لا شك أنها حفرت بالصوان- خطوط عريضة عميقة منتظمة. وكان النقاشون يبدؤون برسم مواضيعهم ثم يحفرون بمنقاش نقطا متسلسلة بينة وأخيرا ينتهون إلى خط متصل واضح بعد صقل متقن بحك آلة حجرية وفوق هذه النقوش توجد نقوش ثانية أصغر حجما منقوطة غير متقنة فيها إجمال كبير ومرفوقة بكتلات أو خطوط ليبية بربرية. وهذه النقوش تمثل حيوانات تعيش إلى الآن في بلاد البربر ومن بينها ما دخل البلاد حديثا كالجمل مثلا ومن هذه النقوش نوع ثالث نمطه عصري خط في رفق ورافقته كتابات عربية هي بالطبع رسمت بعد القرن السابع المسيحي.

2 - تصوير الحيوان والإنسان:

إن النوع الأول هو الأقدم. هو الذي يدعو إلى المناقشة. فليس لنا عناصر تمكننا من ضبط عمره مثل العناصر التي استعملها هـ. بروي مثلا وجعلته ينسب نقوش فرنسا

وإسبانيا إلى الاورنياسي (l'Aurignacien) والمقدليني (Magdalenun) والسوليتري (Solutréen) معتمدا على كونها مدونة في مساكن هذه العصور المختلفة بين حيوان وأدوات معينة من حيث التاريخ. ورسوم الحيوانات في بلاد البربر لا تسمح للباحث بالوصول إلى استنتاجات مدققة شأنها في فرنسا لأن " الفونا " المغربية لم تطرأ عليها نسبيا إلا تغيرات طفيفة. وأخيرا إن مجموعة الآلات المكتشفة قرب الصخور المنقوشة لا تأتي بما يمكن الاعتماد عليه في البحث بصورة جدية تسمح بالحكم باتا. إذ هي ترجع إلى عصور مختلة وتظهر في غالب الأحيان لا علاقة لها بالنقوش.

غير أن هذه الصخور المنقوشة نجدها جنوب وهران متصلة اتصالا دائما بالعصر الحجري الحديث الموسوم بالطابع القفصي " ونستثني من ذلك كل المصنوعات الأخرى من صنف مصنوعات العصر الحجري الأعلى والوسيط والحديث" (ر. فوفري). ولو تعمقنا في البحوث لأمكن الجزم بأن الأمر ليس شاذا.

وأكثر الحيوانات الممثلة بالصور هو الجاموس القديم (bubalus antiqus) وهو حيوان ذو قرنين طويلين جدا كان يعيش في آخر عصر البالستوسان(pléistocène) ومن ذلك نستنتج ج.ب. فلامان الذي يعتقد أن انقراض هذا الحيوان صادف ظهور الصحراء وأن هذه الصخور المنقوشة من عصر نيوليتي. إلا أن حياة الجاموس تكون قد امتدت إلى عصور اقرب إلينا كما هو الشأن بالنسبة للفيل. غير أننا لا نزال نتناقش لمعرفة أي النوعين عاش في إفريقيا من عصر البالسنوسين إلى أن أتت عليه المدينة الرومانية. فهل هو الفيل الأطلسي من الجنس القديم أم هو الفيل الإفريقي الحديث. ونجد أيضا أن أيلات وأسودا وفهودا وزرافات ونعاما وكذلك حيوانات آهلة وخاصة كباشا مغطاة رؤوسها بغطاء مدور الشكل يذكرنا في شيء من الغرابة بقرص كبش عمون. غير أن تأويل هذا الشعار الذي نجده على رؤوس صور الحيوانات المجترة لا يخلو من صعوبات. ولسنا واثقين تمام الوثوق من انه رمز للشمس. أما فيما يخص أصول عبادة الكبش فإن المناقشة ما زالت مفتوحة: يتمسك البعض بأنه يوجد تقارب بين هذه العبادة وبين إله ثيبة. ويذكر "فوفري" في هذا الشأن عبارة "العبادة المتفرعة" ويؤكد آخرون أن الكبش الصحراوي المنقوش "لا يدين بشيء إلى الإله عمون الذي لم يخلق بعد" (ج. جرمانG. Germain) ويذهبون إلى أن مصر والمغرب كرعا من منبع ثقافي واحد.

و في بعض الأحيان نجد أن هذه الحيوانات مصورة جماعات جماعات ومن بين المشاهد الغريبة مشهد صراع جواميس الريشة العتيقة (جنوبي عفلو) ومشهد تمزيق الأسود وبنات آوى لخنزير وحشي بكاف مسوار(بلدية واد شرف المختلطة).

وإن لبعض الصور الآدمية قيمة أثرية عظيمة. فالأشخاص كانوا يسترون عوراتهم ويلبسون ثيابا من جلد الحيوان. وبعضهم يطوقون رؤوسهم بإكليل من الريش وهي علامة الثروة والجاه بلا منازع والبعض الآخر كان يتحلى بقلائد وأسورة وكانوا يدهنون أجسادهم بالمغرة وكانت أسلحتهم القوس والسهام والعصي القاذفة (boomerangs) والتروس.

ومن أهم الصور الآدمية من حيث قيمتها كوثائق طبعا صورة إنسان قصر الأحمر قرب"جريفيل" جنوبي مقاطعة وهران. وهو يلوح بالة يبدو أنها فأس من الحجر المصقول.

3_ضبط تواريخ الصخور المنقوشة

إذا لم ينازع أحد في أن فن النقش على الصخور ثبت طيلة قرون عديدة بعد المسيح. فإننا لا نجد نفس الإجماع عندما تسعى في ضبط تاريخ بروز مظاهره الأولى ولو على سبيل التقريب والحق أن الباحثين كثيرا ما عقدوا المشاكل عند ما سلموا بنتائج على أنها ثابتة بينما هي ليست إلا مجرد افتراضات يقتضيها البحث. نحن لم نعد نقبل اليوم النتائج التي يزعم ج.ب.فلامان أنه استخلصها من اختلاف طرق الصناعة المستعملة من طرف الناقشين على الصخور ولا التي استخلصها من كثافة الطبقة الكدرة المتفاوتة والمغشية للصخور. والتواريخ المرتكزة على المقارنات الأثرية كان مصيرها مصير هذه الحقائق المزعومة والمرتبطة بهذه التواريخ. أما الحقائق الخاصة بالحيوانات القديمة كثيرا ما أعارها الباحثون قيمة خيالية. فلا شيء يدل على أن هذا النقش أو ذاك يمثل آخر جاموس أو أول جمل. وفيما يخص الجمل بالذات الذي يكتنف تاريخه غموض كبير فإننا نتردد في الاعتقاد بأن للصور قيمة تاريخية حاسمة وما اقترحه ت.مونود بالنسبة لنقوش "ادوار أحنات" من تمييز بين الطور الذي ظهر فيه الجمل والطور الذي سبقه لم يفز برضا الجميع. ووجود الفرس الآهل هو وحده الذي يمكننا من دليل يقيني لضبط تاريخه: وهو النصف الثاني من الألف الثانية لا قبله.

و في إيجاز فالمشكل يرجع إلى معرفة هل أن أعرق الصخور المنقوشة في القدم هي سابقة للعصر النيوليتى أم لا. وبصفة عامة فإن الطبيعيين كم بول(Boule) ومولينياك ولـ. جولو (L. Joleaud) وبعض مؤرخي ما قبل التاريخ كهـ. كوهين (H. Kühn) أجابوا بنعم. ونسبوا النقوش القديمة إلى العصر الحجري الأعلى (القفصى) بينما دقق الأب بروي (H. Breuil) الأمر فاستعمل عبارة المضاف إلى العصر الحجري القديم (épipaléolothique) ومن دون أن نذهب إلى ما ذهب إليه ستيفان قزال (St. Gsell) عندما قدر تاريخ هذه

النقوش ب3000 سنة قبل المسيح فإن اغلب مؤرخي ما قبل التاريخ ك ج. ب. فلامان أوبرماير (H. Obermaïer) وبصفة أبلغ ر.فوفرى يرون أن فن النقش على الصخور معاصر للعصور النيوليتية ولقد أوردوا حججا تتفاوت قيمة لتدعيم كلتا النظريتين. ويظهر أنهم لم يصلوا إلى نتيجة بعيدة عن الخدش. لكن يمكن أن نلاحظ أن الريح تهب اليوم صوب النيوليتى.

أما المقارنات التي لم يتمالك بعضهم عن تسجيلها بين هذه النقوش ونقوش إسبانيا وخاصة إفريقيا الجنوبية ورسومها ووجوه الشبه التي لوحظت بين هذه النقوش وبين بعض مظاهر الفن الايجى أو المصري فليس لها قيمة إلا بالقدر الذي نعدل فيه عن الادعاء بأنه يمكن بواسطة المقارنات حل مشاكل لا تزال وربما ستبقى دائما غامضة.

و إن ما قبل تاريخ بلاد المغرب ينبئ بتاريخه. ذلك أنه لا مفر في كليهما من الاكتفاء في غالب الأحيان بتواريخ تقريبية. وإذا أفلتت شعوب ما قبل التاريخ من سلطان التدقيق فإنه ليس من الهين ضبط شعب التاريخ. أي البربري الذي يمثل من الوجهة الاجتماعية إن لم نقل من الوجهة الجنسية حقيقة حية قارة.



الباب الثالث

البربر

1 - مشكل الجنس

2 - أوائل التاريخ

3 - مدنية البربر

I - مشكل الجنس:

1 - البربر:

مهما رجعنا إلى أوائل تاريخ إفريقيا الشمالية لاحظنا أن الأمور تجري كما لو أنه كتب على هذه البلاد أن تبقى قاصرة قصورا وراثيا عن التمتع باستقلالها. فلقد بقيت دائما خاضعة لمدنيات واردة من الخارج وفي بعض الأحيان اقترن مصير هذه المدنيات. فكان يجب أن نجد مبدئيا شعبا متعدد المقومات متغير الثمرات. ولكن الحقيقة غير ذلك. فسلطان الطبيعة هنا عظيم. والعبارة العربية "جزيرة المغرب" ليست من قبيل الاستعارة فحسب. بل هي تمثل هذا الميل إلى الدوام الذي تختص به الجزر. فالمدنيات المتتابعة التي طرأت من الخارج لم تكن بالنسبة إلى البربري إلا ثيابا متنوعة تستر جسدا وروحا لا يتغيران. زد على ذلك الجبال التي نمت في بلاد المغرب هذا الميل إلى المحافظة.

ومدلول المدينة البربرية عندنا هي هذه المجموعة من التقاليد والعادات والأخلاق والنظم التي وجدت خالصة أو مشوبة في كل العصور بقطع النظر عن صروف التاريخ. فهي مظاهر قارة لعقلية ثبتت أمام مشاكل سياسية أو دينية. و هي بعبارة أخرى محصول بحث سوسيولوجي لم يكتمل من سوء الحظ. وستصبح عن قريب مواصلته مستحيلة

فهذا الحد السوسيولوجي للبربري، مهما أعوزه الوضوح والدقة، هو الحد المرضي الوحيد. وهو وحده الذي يعبر عن الخصائص المشتركة للسكان الموجودين في شمال القارة الإفريقية من طرابلس إلى المحيط الأطلسي. ورغم اختلاف طرق العيش اختلافا واضحا جدا في الحاضر والماضي فإننا نلمس في كل هذه القطعة من أوروبا المشدودة إلى إفريقيا العناصر الطريفة لوحدة بشرية عظيمة.

ولا شك أن هذه الوحدة قد ظهرت قديما في ميدان اللغة. وقد لا يكون ذلك باستعمال لغة واحدة في بلاد البربر كلها، بل في أغلب الظن باستعمال لهجات متقاربة تكون مجموعتها المسماة اصطلاحيا الليبية فرعا من فروع أسرة حام. و هي مصدر اللهجات البربرية الحالية. غير أن هذه المجموعة التي هددتها لغات مدنيات أخرى تصدعت وتفرقت

كتلا مختلفة. فالعربية غزت سكان المدن والسهول ويذهب "وليام مارسي" إلى أن نسبة الناطقين بالبربرية هي اليوم 23 بالمائة في ليبيا، وواحد بالمائة في تونس، و27 بالمائة في مقاطعة قسنطينة، و34 بالمائة في مقاطعة الجزائر العاصمة، وواحد بالمائة في مقاطعة وهران. وقد تجاوزت هذه النسبة 40 بالمائة في المغرب الأقصى. لكن الأمر لا يعدو الفروق اللغوية. فليس هناك خطأ أعظم من الاعتقاد -كما فعله البعض في كثير من الأحيان- في أن التقسيم بين الناطقين بالعربية والناطقين بالبربرية يعكس تقابلا بين جنس عربي وجنس بربري. إن الأمر لا يدل إلا على أن اللهجات البربرية استقرت في جهات جبلية أصعب منالا على الغزاة بينما استسلمت في جهات أخرى إلى لغة أكثر مسايرة للضرورات الاجتماعية.

2 _ شبكة من الأجناس

ينبغي ألا نستخلص من هذه الوحدة المتأصلة للحضارة البربرية أو من المعطيات اللغوية التي نبهنا إليها سابقا وجود أساس جنسي يفسرها.

ولا شك أنه منذ أوائل عصور التاريخ استقرت ببلاد المغرب شعوب مختلفة شديد الاختلاف. وإذا نحن استثنينا الشعوب التي لم تمتزج بصفة عامة بالسكان الأصيلين أو المندمجين، مثل الأوروبيين الذين استقروا منذ ما يقرب من قرن، أو اليهود الذين أتوا في دفعات متتابعة منذ العصور القديمة، فإننا نلاحظ استيطان الساميين (الفينيقيين والعرب) والهنديين الأوربيين (اللاطين والوندال واليونان) والأتراك والزنوج. غير أن هذه العناصر المختلفة، وإن هي امتزجت بالسكان المستقرين، فقد أتت في عدد ضئيل جدا بحيث تعذر عليها تغيير المقومات الجنسية بإفريقيا الشمالية. فالوندال كانوا ثمانين ألفا وكذلك العرب المستوطنون فعددهم لم يكن كبيرا جدا. فالجيوش المرسلة من الشرق إلى إفريقيا في القرنين: السابع والثامن بلغ مجموعها 000 150 رجل تقريبا. وكما قال "وليام مارسي": يجب أن نعتبر الخسائر في الأرواح بساحات القتال مدة الغزو الطويلة والثورات البربرية. غير أنه من الواجب أن نزيد على هذه المجموعة النساء والأطفال والموظفين والتجار والمبشرين الذين كلفوا بنشر تعاليم الإسلام بين البربر، ومجموع هؤلاء جميعا لا يتجاوز مائتي ألف أو ثلاثمائة من الدخلاء على أكثر تقدير. أما فيما يخص العناصر الأخرى المستوطنة فليس لدينا أرقام ولو تقريبية. ولكن ليس هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأنها كانت كبيرة العدد. وفي الجملة لا نرى أن واحدا منها أمكن أن يكون له مفعول قوي فيما يخص واقع البلاد الجنسي، خاصة إذا نحن لم ننس أن المستوطنين كانوا يتعاقبون في الزمان، وينتشرون في المكان.

فهذه الملاحظات تدعونا إلى التفكير في أن السكان الذين يعمرون بلاد البربر اليوم -مع اعتبار بعض عمليات التوليد- هم أنفسهم الذين كانوا يعمرونها في أوائل عصور التاريخ. ولكن يكفي أن نقارن بين الميزابيين ذوي الرؤوس البيضية والقامات القصيرة واللون الأسمر والوجوه المفلطحة وبين سكان جبال القبائل ذوى الرؤوس المستطيلة والقامات القصيرة والنظرة الصافية والشعر الأشقر أو الأصهب غالبا - لندرك إلى حد اليقين أن البربر لا يكونون جنسا منسجما من حيث الانتروبولوجية. ولا شك أنه حدث خلال عصور ما قبل التاريخ اختلاط كبير بين مختلف عناصر السكان انبثقت منه النماذج الجسدية الحالية. وأنه من السابق لأوانه -وأبحاثنا الانتروبولوجية في إفريقيا الشمالية على الحالة التي عليها الآن- أن ندعي توضيح خفايا الامتزاجات الواقعة في العصر النيوليتي وما قبله توضيحا كاملا. غير أن أبحاثا حديثة تسمح لنا بالاعتقاد أن البربري يستمد أصوله من عنصرين أساسيين: إنسان مشتي العربي وإنسان ما قبل المتوسطي (préméditerranéen). ومهما يكن الأمر فإن ملاحظات أغلبها قديمة ومستمدة من البربر الحاليين تبين تنوعهم الانتروبولوجي.

3_ تصنيف برتولون(Bertholon) وشانتر (Chantre)

بعد أن قام برتولون وشانتر ب 532 1 ملاحظة في قيس الأوادم انتهيا سنة 1913 إلى تقسيم سكان بلاد البربر الشرقية إلى ثلاثة أصناف:

صنف1: وهو قصير القامة مستطيل الرأس، متوسط الأنف، اسود الشعر، بشرته فيها صدأة وصبغها أحمر يضرب إلى السمرة وهو صنف الأس (Ellez) ضبطه كولينيون (Collignon).

صنف2: وهو قصير القامة بيضي الرأس، دقيق الأنف طويله، أسود الشعر في عينيه دكنه، وفي بشرته صدأة صبغها ضارب إلى الصفرة. وهو صنف جربة ضبطه كولينيون.

صنف3: وهو طويل القامة، مستطيل الرأس، دقيق الأنف طويله، له، إذا كان أصيلا، شعر أشقر وعينان زرقاوان وبشرة بيضاء وردية اللون. ولكن هذا الصنف قد داخله التوليد وتفرع عنه نوعان آخران.

صنف3 - أ -: له خصائص صنف 3 ولكنه بيضي الرأس.

صنف3 - ب-: مولد من أصل زنجي، أنفه منتشر وبشرته أكثر دكنة، وهو صنف الواحات. ضبطه كولينيون.

والصنف ذو الرأس المستطيل والقامة القصيرة له صلات بالجنس المتوسطي، والصنف ذو الرأس البيضي له علاقة بأصناف آسيا الصغرى الشبيهة به (أكراد)، وخاصة فرنسا (دردونيا). والصنف ذو الرأس المستطيل والقامة الطويلة له صلات بالجنس الأوربي المعبر عنه بالشمالي.

و فضل الدكتور " لوبلان" (Leblanc)، على البحث الذي أجراه "برتولون" و"شانتر" حول مجموع السكان، القيام ببحث مسبق منتظم للصنف أو الأصناف الغالبة التي يعتمد عليها علم قيس الأوادم. ولا يرى مانعا من الانتفاع بالدراسة التي تعتمد على التشريح الخارجي، والتي لم يهتم بها من سبقه.

وهو يطعن في قائمة الأسماء التي ضبطاها. ويطعن في تعديدهما لأصناف شتى لا تعطى أي تدقيق فيما يخص إمكانية وجود البربري: فصنف 1 هو توليد من أصل زنجي قديم وصنف 2 يضم الميزابيين الذين ينكر عليهم نسبتهم إلى البربر وصنف -3 أ- نتيجة توليد يرتكز ولا شك على الصنف العربي وصنف -3 ب- مولد من أصل زنجي.

4_ البحث عن الأصناف الغالبة:

إن أحسن طريقة للدرس قد تكون تلك التي تدعو، كما أوصى بذلك "توبينار" (Topinard) إلى البحث عن الأصناف الغالبة في جهة ما. ولذا -يحسن- كما اقترح الدكتور "لوبلان" -الاقتصار على بعض الأصناف في جهة ما لمقارنتها بأصناف اختيرت بنفس الطريقة في جهة أخرى. ففي المجموعة الأولى المضبوطة على هذا النحو ندرس من جديد شكلها الظاهري الغالب لنقارنه بدوره بشكل ظاهري معين بنفس الطريقة في مجموعات أبعد جغرافيا. فهذه هي طريقة تعتمد على ضبط الأصناف من الناحية التشريحية قبل قيس نماذجها خلافا للطريقة الأخرى التي تبدأ بالقيس قبل ضبط الأصناف.

وبهذه الطريقة أمكن للدكتور "لوبلان" عزل طرفي في الحجاز (Hoggar) محدد تمام التحديد بخصائص شتى ومقابل لنسبة كبيرة لمجموعة من السكان محدودة العدد. وهو يظن أنه يوجد في بلاد القبائل نوع من الأجساد واضح المعالم ولو أنه أقل دقة مما نجد عليه الطوارق. غير انه وإن تشابه الصنفان في طول القامة واستطالة الرأس ودقة الأنف وطوله، فإنهما يختلفان في كل الخصائص الأخرى. ويظهر أن الآمر بالمثل بالنسبة للشاوية وسكان الريف وبني خمير. وما نعرفه عن بربر المغرب الأقصى يمكننا

من ضبط صنفين: صنف الشمال الشبيه بالقبائلي، وصنف الوسط والجنوب القريب من " الطوارق".

وهذا البحث في الأصناف الغالبة ما زال في بدايته وسيكون ثمرة المستقبل، إذ أن مقارنة هذه الأصناف من حيث الشكل الظاهري هي وحدها التي ستسمح بإقامة تصنيف علمي. وفي الوقت الحاضر يكون من الصلف أن نقوم بعمل آخر غير تضمين النتائج الحاصلة التي تدل على تجزؤ بلاد البربر من حيث أجناسها. إلا أنه - ما إن تسير لنا معرفة البربري الذي يمكن تسميته بحق: المغربي -حتى يبدو صنفا اجتماعيا له خصائصه الواضحة. وبقدر حرصنا على طرافة البربري نتمكن من إبراز ضرب من الوحدة لتاريخ بلاد البربر.



II - أوائل التاريخ:

1 - الأساطير:

منذ العهد النيوليتي الذي فيه استكملت النماذج الانتروبولوجية الحالية استقرارها إلى عهد توغل الرومان في البلاد لم يصطدم التاريخ بالبربر إلا عرضا وذلك عند اتصالهم بالشعوب الأخرى.

وشهرة ما رواه أفلاطون في كتابه الطيماوس (Le Timée) معروفة. فمملكة جزيرة الاطلنطيس(Atlantis) تكون حسب هذه الرواية بسطت نفوذها على ليبيا وحاولت غزو مصر وبلاد اليونان. ولكن المياه غمرتها في آخر الأمر. وهل نحن في حاجة إلى ذكر هذه القصة الفلسفية التي أثارت الكثير من التعاليق الغربية بالرغم عن أنها أشد اتصالا بميدان علم الأمراض العقلية كما قال أ - البرتني (E. Albertini).

وتوغل الفرس والميديين (Les Médes) والأرمن في إفريقيا بعد موت هرقليس ليس إلا أسطورة رواها سالوسطس (Salluste) لا نصيب لها من الصحة.

أما ما رواه " بروكوب" (Procope) عن غزو العبرانيين لليبيا -مما نجد له صدى في مؤلفات العرب- فيبدو أنه صادر عن بيئة يهودية متأثرة باليونان وليس له أية قيمة تاريخية.

2 - دخول الليبيين لمصر:

وخلافا لما سبق ذكره فإنه من اليقيني أن وادي النيل كان مسرحا لهجومات الليبيين في الفترات المضطربة وابتداء من أسرة الملوك التينيين الأولى (حوالي 3300 سنة قبل المسيح) سجلت الوثائق كلوحة "نارمير" انتصارات فرعون على الليبيين فهم الذين تسميهم النصوص التهينو(Tehenou) وهم الذين تظهرهم الصور المشخصة متسلحين بالسهام والعصي القاذفة (boomerang) والآلهة نايت (Neit) تسمى "الليبية" في الأنشودتين الرابعة والخامسة ويستحق فرعون الثناء عندما يأخذ التاج الأبيض العظيم من أيدي هؤلاء الأجانب العظام الذين يحكمون الليبيين بهذا قد تكون وجدت مملكة مصرية - ليبية في المغرب.

وتحمل الآثار صورا تمثل المعارك التي شنها على الليبيين ملوك الأسرة الخامسة بمنف للقضاء على الاضطرابات التي سبقت توليهم الحكم. وذلك حوالي سنة 2600. وقد كانت هذه المعارك حاسمة إذ يبدو أن الليبيين لم يهددوا مصر حتى آخر الإمبراطورية الوسطى. وبعدما صد رمسيس الثاني أحد هجوماتهم جندهم لمواجهة خطر الحتيين (أوائل القرن الثالث عشر) ووجدهم ابنه منوفتاح (Ménephtah) ضمن اتحاد شعوب البحر العظيم وهو رد فعل ضد التوسع الهندي الأوروبي - وقد تحالف اللوبيون أو الليبيون مع قراصنة الشمال الليسيين وسردان ساده أهل سغلوس (Sagalos) وترسين أهل لمنوس والأخائيين فكانوا أغلبية الجيش الذي هاجم الدلتا بدون نتيجة (1227). وقد يكون أصل هؤلاء اللوبيين من الأطلس فقد لوحظ أن أسمائهم وأسماء قوادهم تذكر بالضبط أسماء النوميديين الوارد ذكرهم في التاريخ المألوف (A. Moret). ومهما يكن من أمر فهم الذين أطلق اسمهم على ليبيا ولعبوا في تاريخ مصر، فيما بعد، دورا رئيسيا متزعمين كتلة غير منسجمة من التهانو (Tehenou) والهنديين الأوروبيين. وفي آخر الأمر اضطر رمسيس الثالث حوالي سنة 1189 ق م رغم انتصاره عليهم غرب "منف" أن ينزلهم في "عشرات الآلاف" بالدلتا حيث سخروا من مراقبته.

واستغل أحد القواد الليبيين المرتزقة الفوضى التي تبعت ذلك فبسط نفوذه على هرقلة(Hierakléopolis) في مصر الوسطى (Moyenne Egypte). وغزا خليفته السابع شيشونق الأول (Sheshonq) الدلتا وقسم الأرض بين الليبيين. وأسس الأسرة الثانية والعشرين (950) ق م. ويصور لنا الفن الشعبي الأول مرة مجتمعا شغوفا بالمعارك مخالفا تمام المخالفة للمجتمع المصري. وخلافا لما اعتقد المؤرخون طويلا فإن أحفاد رسل الإله أمون القدامى ليسوا هم الذين أسسوا مملكة نباطه (Napata) التي اتسعت رقعتها في أواخر القرن الثامن من الشلال الأول إلى الحبشة. وأثبتت حفريات رينا (Reisner) أن الليبيين هم الذين بسطوا نفوذهم على أرض "الكوش" كما فعل ليبيو الشمال بالنسبة للدلتا. لقد كانوا فرسانا متحمسين لجيادهم لا سائقي عربات كالفراعنة. ولم يوجد أطوع لتعاليم أمون وكهنته من هؤلاء الأجانب المستوطنين بمصر. ولاشك أن المدينة المصرية أشعت بواسطتهم على الليبيين الغربيين وربما بلغت أنوارها المترامية أقصى غرب إفريقيا.

3 - العلاقات مع العالم الإيجي والفينيقي واليوناني:

إن معلوماتنا حول علاقات الليبيين مع العالم الإيجي أقل من معلوماتنا حول علاقات الليبيين مع مصر. ويعتبر أ.إيفانس(A. Evans) أن اتصال الليبيين بالعالم الإيجي

غير مستبعد. وتروي إحدى الأساطير أن كوروبيوس الإقريطي قذفت به العاصفة إلى ساحل ليبيا فرجع إلى جزيرته ربانا. وكان أسطول مينوس (Minos) يتزود في ليبيا من القريني(Cyrénaïque) بلا شك بنبات السلفيون (Silphion) الذي كان يجني لطيب رائحته ومنافعه الطبية. ولا بد أن إمبراطورية البحار الإقريطية أدت إلى تأسيس مراكز تجارية على الساحل الإفريقي منها تكون مدينة مينوس (minoenne) قد أشعت؛ ودليل ذلك قد نجده في الرسم الذي أزدان به أحد جوانب قبر محفور في صخرة قائمة (حانوت جمع حوانيت) في جهة مقنة (بين باجة وطبرقة بالشمال التونسي). ويستدل سولينياك على وجود علاقات بين الشمال الشرقي لبلاد البربر و"ايجه" قبل مجيء الفينيقيين بمشهد بحري غرضه الأساسي مركب عديم الارتفاع على سطح الماء (bas sur l'eau) له صار مركزي وشراع شكله شبه منحرف كما يستدل أيضا بأشخاص هذا المشهد. ولعل هذه العلاقات هي التي تلقي الأضواء على تأسيس مدينة مشالة (Meschela) التي ينسبها ديودرس الصقلي إلى اليونان عند عودتهم من طروادة وعلى كيفية حفر الحوانيت. إلا أن "أ. بوتيا" يبدي تحفظات إزاء هذه النظرية. ويكتفي " كلوتز" بالاعتراف بأن الصور المرسومة على جدران الحوانيت تشبه صورا أخرى اكتشفت في دلف (Delphes) كما يكتفي " قزيل" (St. Gsell) في حذره المعتاد بأن يؤكد أنها ليست فينيقية ولا رومانية.

أما المؤثرات الإيجية التي قد تشهد بها الآنية الخزفية البربرية الحالية، فإنها لا تزال مجرد احتمالات بالنسبة للمستوى الحالي لمعارفنا.

وقد ظهر التأثير الفينيقي الثاني منذ القرن الثاني عشر وأصبحت له خطورته في قرطاج التي سيطرت طيلة ألف سنة على تاريخ بلاد المغرب. ودراسة هذا التأثير تتصل بتاريخ العاصمة البونيقية.

وتروي نصوص عديدة، لا نطمئن تماما إلى صحتها، قدوم أبطال اليونانيين الذين خاضوا حرب طروادة إلى ليبيا. ويجب أن نعير رحلاتهم قيمة أكثر من رحلات برسي (Persée) وهرقل والارغنوط. فالاستعمار اليوناني لم يتصل أبدا مباشرة ببلاد البربر. ولم يستقر الدوريطانيون على نجد بلاد القريني (Cyrénaïque) إلا حوالي سنة 631. وكانت لهم مع الليبيين معارك عنيفة متكررة. ولكنهم اختلطوا بهم اختلاطا وثيقا وتبنوا تقاليدهم الجنائزية وعقائدهم وسعوا إلى التزوج بالجميلات من نسائهم. ولئن هم أسسوا مدينة برقة في أواخر القرن السادس، فقد اصطدموا بقرطاج عندما كرروا محاولاتهم التوسعية. ولم يسمح البونيقيون كذلك باستقرار دوريوس أصيل سبرتا

بين سبرتا الصغرى وسبرتا الكبرى. وفرضوا في آخر القرن السادس بعد ذلك على اليونان أن لا يتجاوزوا معابد "الفيلان" حتى لا يتوغلوا في سبرتا الكبرى (مختار) (Mouktar). ولا شك أنهم حجروا عليهم في القرن السادس كما حجروا على الرومان كل تجارة مباشرة مع بلاد البربر -وإذن فإن البربر لم يعرفوا الفن المعماري والصناعة والعبادات اليونانية إلا بواسطة الفينيقيين. ولم يتيسر للممالك البربرية أن تتاجر مع اليونان بحرية إلا بعد سقوط قرطاج، وعند ذلك أمكن لبعضهم أن يعيشوا في العواصم البربرية وأن ينشروا مدنيتهم في بلاطات الأمراء.

III - مدينة البربر:

1 - طريقة المقارنة:

وعندما ندرس أحوال البربر معتمدين على المراجع القليلة الموجودة نباغت باستمرار عاداتهم خلال العصور. فالكثير من مظاهر حياتهم الاجتماعية الحالية خصوصا الدينية منها تمتد جذورها إلى ماض سحيق ربما يرجع إلى ما قبل التاريخ. ولذلك نسمح لأنفسنا بالاعتماد على ملاحظات حديثة لتعويض الحلقات المفردة من الوثائق أو ربط أحداث واقعة خلال مختلف العصور تظل غامضة من دون شك. إنها طريقة دقيقة تشكو داء ليس له دواء، ألا وهو انعدام التواريخ. ولذلك يحتاج كل من اعتمد عليها إلى الحذر الشديد وإلى إحاطة بالمعارف لا يتسرب إليها الشك. ورغم ذلك فإن النتائج بصفة عامة لا تتجاوز الحقائق التقريبية والفرضيات. وبما أنه لا يمكن استعمال طريقة أحسن منها فإنها إذا استعملت بمهارة تعطي نتائج مدهشة في بعض الأحيان. فالمقارنة التي قام بها "أ. ف.ڤوتيه" بين الكاهنة وأحد قواد بني زيان أثناء الحروب الأخيرة بالمغرب الأقصى -إذ يأمر كلاهما ابنه بالاستسلام للعدو الذي كان عربيا بالأمس وفرنسا اليوم -تلقي الأضواء على جانب من جوانب العقلية القبلية. وقد اعتمد عليها "ستيفان قزال" اعتمادا كليا، فألف كتابين في نظام البربر الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وفي حياتهم المادية والفكرية والأخلاقية، وفيهما من غزارة المعلومات والطرافة ما يدعوا إلى الأخذ منها بلا احتراز.

2 - صيادون ومربو مواش:

لم تتغير عادات البربر طيلة العصور تغيرا محسوسا. لقد كانوا في أول أمرهم صيادين تقض مضاجعهم الوحوش الضارية. واستمر بعد ذلك يبحثون عن هذه الحيوانات توفيرا لأمنهم وسدا لحاجات ملاهيهم. ولما عرفوا الفلاحة ظلوا -رغم ذلك- يربون البقر والجياد والغنم والضأن. إما مقيمين في أماكن قارة بجهات آمنة أو منتقلين من مراعي السهول شتاء إلى مراعي جبال التل صيفا أو منتجعين السباسب إلى أن يضطرهم الجفاف إلى اقتحام مروج التل ولو بالقوة. وسنرى أن الفلاحة لم تسجل تقدما محسوسا إلا في القرن الثاني قبل المسيح بفضل مسينسا العاهل البربري العظيم.

ولقد حافظت قبائل الرعاة على ملكية الأرض الجماعية. ولا بد أن وجدت شيوعية في الميدان الفلاحي تتمثل إما في قسمة ثمرة عمل الجميع بين أفراد المجموعة أو في توزيع الأرض بين العائلات بصفة وقتية. ولا نعرف بالضبط الظروف التي تكونت فيها الملكية الخاصة التي يلاحظ وجودها في عهد ملوك البربر.

ولم تضمحل سكنى الكهوف مع اضمحلال عصور ما قبل التاريخ بل بقيت في بعض الجهات إلى أيامنا هذه. غير أن الكهوف (افري)، بحكم استقرارها، لا تلائم مربي الحيوانات الذين كانوا ينتقلون من مكان إلى آخر بمواشيهم. ولهذا فهم يقبلون على المنازل المتنقلة وهي نوع من الأجهزة يمكن فكها جزءا جزءا تغطى بالحصر. ونجد شبيها لها في بعض جهات الصحراء. وهي تشترك بدون شك مع بعض المنازل البسيطة الأخرى في اسم مباليا (Mapalia) أما الحضر فإنهم يسكنون إما في أخصاص من فروع الشجر تميل إلى الطول، أوفي أكواخ مربعة من حجر أو طين جاف.

ولقد أنشأ البربر لحماية ثرواتهم من النهب ملاجئ، وهي نوع من القصور أو القلاع يحرسها رجال مسلحون، أو هي في بعض الأحيان أبراج فيها يقيم سيدهم منزله بمكان وعر ويودع كنوزه ويشيد أهراءه. وكانوا يتجمعون في قرى تتكون من تكاثف الأكواخ في أماكن لائقة صالحة أعدها القوم. وهذه القرى والأحياء التي اعترضت طريق الرومان والتي يعدونها بالمئات سميت عندهم كستلا (Castella). ولم توجد المدن إلا من وقت استعمار الفينيقيين. ولقد سميت باللاتينية أوبيدا (Oppida).

3 - طعامهم ولباسهم وأسلحتهم:

اشتهر البربر في كل العصور بقوة بنيتهم وطول أعمارهم. والواقع أن الذين لا يزالون إلى اليوم يثبتون إزاء هذا التبذير المريع للأنفس البشرية هم من طينة ممتازة. إنهم كانوا قنوعين ونباتيين في غالب الأحيان. وقد كان الفلاحون يأكلون الكسكسي منذ ذلك العهد ومربو المواشي قليلا ما كانوا يذبحون حيواناتهم بل يكتفون بلبن المعز. وكانوا يؤثرون الصيد والحلزون، والعسل ولا يشربون إلا الماء.

وكان البربر القدماء يسيرون حاسري الرؤوس قد أسبلوا شعورهم على آذانهم ونضدوها لولبية الشكل متوازية أو أبقوا خصلة منها زاهية في أمهات رؤوسهم المحلوقة، وكانت لهم دائما اللحى الملسنة.

وبعد أن كانوا يكتفون بستر عوراتهم أو يتزرون بإزار -إذا هم لم يعيشوا عراة تماما- اتخذوا لأنفسهم جلود الحيوانات وقاية من البرد ثم استعملوا عباءات من الصوف

شبيهة "بالكردون" ومعطفا شبيها بالبرنس. وظلوا دهرا طويلا يضعون على رؤوسهم إكليلا من الريش يظهر اليوم في الصخور المنقوشة.

وبعد حجرات ما قبل التاريخ التي بقيت مستعملة طويلا أصبح الدبوس سلاحهم المفضل وربما العصا القاذفة (boomerang). ثم بعد ذلك استعاضوا عن السيف بالقوس وخاصة الحربة اللذين كانوا يقاتلون بهما. وقد شدوا إلى أيديهم سكينا لذبح أعدائهم وإذا هم اضطروا إلى سلاح دفاعي احتموا بترس خفيف من جلد الفيل يصير غير صالح للاستعمال إن بلله المطر.

4 - الحلي والفن:

كان إنسان ما قبل التاريخ يعطي لحجارته المنحوتة اللوزية (amandes) وأدواته المذنبة وفؤوسه المصقولة أشكالا متناسبة منسجمة. فكان يصور بأظافره، ثم بآلات حادة من الصوان والعظام نقطا متتابعة وخطوطا منكسرة وخطوطا منحرفة عديدة. وكان يزخرف بيض النعام ويصنع الدرر والأقراط ويزركش الصخور بنقوش عديدة كما رأيناه سابقا.

وكان البربر يتزينون بالحلي نساء ورجالا. فالرجال يضعون أقراطا في آذانهم والنساء خلاخل في أرجلهن، وكان جميعهم يحملون أسورة وقلائد.

ولم يعرفوا رغد العيش في البيت إذ كانوا على الأرض أو على المصاطب المبنية، ولم يكن لهم من المتاع إلا آنية من الفخار زينتها الهندسية موجودة إلى يومنا هذا في آنية الخزف ببلاد القبائل.

والبربر شأنهم شأن الأمم البدائية كانوا يعتبرون الفن ظاهرة اعتيادية للحياة لا متعة للنخبة. وكانوا لا يزخرفون إلا الأثاث المستعمل عادة اللهم إلا الحلي المتصل أصلها القديم بالسحر. والمرأة فنانة أكثر من الرجل في غالب الأحيان فهي التي تزخرف آنية الخزف أو تنسج الزرابي.

ولا يستمد الفن البربري نماذجه من الطبيعة، بل هو يتعلق بالزينة ذات الأشكال الهندسية ولا يستعمل الخطوط المنحنية إلا نادرا وبدون براعة إلا أنه غير عاجز عن التقليد، إذ هو يصنع دمى للسحر صورها بشرية خالصة. وهذا الفن الهندسي الرتيب في الظاهر والذي ربما يحمل في طياته ما يعبر عن مختلف مراحل تطور ما يرجع إلى عصور قديمة جدا. ويتصف بحيوية ممتازة إذ هو صمد في وجه مظاهر الفن الأخرى

وخاصة عند اتصاله بالفن الإسباني المورسكي. وبقيت النون كالأدوات هي هي لم تتغير. ولعل النساء هن اللاتي حافظن على تقاليد الفن المنزلي العريقة التي لم تأت عليها الاضطرابات والغزوات.

5 - اللغة الليبية:

كان البربر يتكلمون لهجات ليبية من المحتمل أن يكون أصلها البعيد هو أصل اللغات السامية. واللغة كانت ولا تزال عندهم أداة مشافهة وقد قال باسي "ولا نعلم البتة أن البربر أقاموا مدينة تعتمد على الكتابة أداتها لغتهم" غير أنهم كانوا يحذقون كتابة بقي أصلها مجهولا وربما كانت فينيقية احتفظ علم الخطوط بآثارها (واكتشفت حتى الآن 1125 كتابة وتؤكد حروف شبيهة بحروف خط الطوارق الحالي (التيفيناغ) قرابة بين حروف اللغتين. غير أنه تعذر إلى حد الآن قراءة الخطوط الليبية بالرغم من أنه يوجد لدينا ما يماثل عشرين منها في البونيقية واللاطينية. وكتابة الوحيدة المؤرخة جاءت في لغتين وتوجد في توقة (دقة في العهد الروماني) وتوافق السنة العاشرة من حكم ميسبسا (139 قبل المسيح) ولا يمكن الجزم بأنه توجد شواهد أقدم للكتابة البربرية.

6 - الدين:

كان الأفارقة يعبدون الجماد والحيوان. ولكنه من الصعب في غالب الأحيان أن نميز بين ما ابتكروه من الطقوس وبين ما ورد عليهم من الخارج. وخاصة من مصر أثناء العصور النيوليتية بالخصوص. إن الجن الذي كان معششا في العقلية المغربية أولد آلهة محلية لم يزل البربر يعبدونها حتى العهد الروماني. ثم استعاروا فيما بعد آلهة مصر وقرطاج وروما أو استعاضوا بها عن آلهتهم. وكان لهم في القرن الأول قبل المسيح آلهة تحميهم تسمى "أفريكا" رأسها مغطى بجلد الفيل. وكانوا يتعبدون بالخصوص في المغارات أو في الأماكن العالية أو بالقرب من العيون والأشجار المقدسة بدون أن يحتاجوا إلى تماثيل أو معابد أو كهنة. وعلاوة على المواكب القديمة التي يتعاطون فيها السحر فإنهم عمدوا إلى التضحية والعرافة المعتمدة على النوم فوق القبور (L'incubation) وإلى تنبؤات النساء.

7 - دفن الأموات:

ترك الأفارقة الكهوف الطبيعية المستعملة في عصور ما قبل التاريخ. وحفروا في الصخور قبورا مربعة مدخلها عمودي شبيهة بالمساكن. وتسمى الحوانيت. محدودة

المساحة عادة. وفيها يضعون موتاهم. ويعتقد سولينياك كما رأينا أن كيفية تنظيم الحوانيت خاضعة إلى التأثير الإيجي. ويرجع أمر هذه الحوانيت إلى العصور البعيدة. وربما سبقت الألف الأولى قبل المسيح كما يرى ذلك ستيفان قزال.

وبعد أن كانوا في عصور ما قبل التاريخ يودعون موتاهم الخيام في الهواء الطلق أصبحوا يدفنونهم بعيدا عن الأماكن المسكونة تحت رجام مخروطة الشكل من الحجارة كلها. أو نصفها من حجارة ونصفها من تراب. وتسمى بازينة. وهي رموس بربرية صرف يبلغ حجم بعضها 150 م. . وفيها تخبأ العظام عادة في صندوق مكون من صفائح. ويدفنونها تحت مصاطب أغلبيتها مكونة من صفيحة واحدة. وغالبا ما تغطى كلها أو قسم منها برجام مخروطة الشكل. ويودعونهم أيضا " شوشات" وهي قبور اسطوانية الشكل متفرعة عن المصاطب. وهذه القبور المبينة من مدر. وخاصة المصاطب. لا بد أنها تنتسب إلى نماذج قديمة جدا ولا شك أنها من عصر نيوليتي. غير أن هذه الشعائر نفسها تواصلت قرونا عديدة وخضعت إلى تطور محتوم كما تدل على ذلك المقارنة بين المقابر التي اكتشفها الدكتور روفو (Roffo) في واد ورك (جنوب مقاطعة الجزائر). وفي عين حمارة (جنوب وادي جلال). ويغلب على الظن أن مقابر واد ورك سبقت ميلاد المسيح. أما الأخرى فقد تكون معاصرة للقرن الثالث أو الرابع بعد المسيح.

وكانوا في غالب الأحيان يدفنون أمواتا كثيرين في القبر الواحد بعد أن يطووهم أو يجردوهم من لحومهم ويخلطوا عظامهم. ورغم المؤثرات الخارجية فإنهم لم يكونوا يدفنون الميت ممددا إلا نادرا. ولكنهم قلدوا القرطاجيين واليونان فحرقوا في بعض الحالات الاستثنائية بعض موتاهم ابتداء من القرن الثالث قبل المسيح.

وعادة تلوين الميت بالمغرة امتدت من عصور ما قبل التاريخ إلى القرن الثاني. وكانوا يضعون بجانب الميت أثاثا متواضعا وحليا. وآنية بلورية وخاصة خزفية إن أمكن ذلك.

واتجاه القبور صوب الشرق والصحون المملوءة زادا والمتروكة على ذمة الجثث وكذلك أحواض الاغتسال التابعة للمصاطب (rigoles à libations des dolmens) فإنها تشير كلها إلى إيمانهم باليوم الآخر أما طي الأجسام وخلط العظام فربما يترجم عن فزعهم من رجوع الموتى.

8 - العائلة الأغنية (La famille agnatique)

إن كثرة الأدوات والأسلحة وأصداف الحلزون في مراكز عصور ما قبل التاريخ تدل على

أنه كان للأفارقة حياة اجتماعية منذ أقدم العصور. والخلية الأصلية في المجتمع البربري هي العائلة "الأغنية" وهي العائلة التي تقوم على ذكور من سلالة واحدة.

وتعدد الزوجات هو الذي يعلل كثرة الولادات الخارقة للعادة. وما قيل من أن النساء كن مشاعات بينهم إنما هو أسطورة ربما استمدت وجودها مما كان يتمتع به مالك لقبيلة شرقية الموطن من حق افتراع الأبكار ليلة عرسهن. ومن عادة البغاء المقدس. وقد أطنب " فرازر" في إقامة الدليل على أن مثل هذه العادات لا يمكن اعتبارها مجونا بل ضربا من السحر المحبب إلى النفوس. ذلك أن البدائيين يعتقدون أن قران الأزواج جسديا يجب أن يتم حسب طقوس مضبوطة لضمان خصوبة الأرض والبشر والحيوان.

ولكبير القوم سلطة مطلقة على كافة أفراد العائلة " الأغنية" ولكل أب نفوذه على أفراد عائلته هو. فيخص نساءه بالأشغال الحقيرة. ويبيع بناته إلى من يقدم له أغلى الأثمان. ويزوج أبناءه بمن يشاء ويبقيهم تحت نفوذه. فإذا مات الشيخ لا يرث النفوذ أكبر أبنائه سنا بل يرثه أكبر أفراد العائلة كلها. وهذا النظام يسمى اليوم تانستري (من الارلاندية تانيز بمعنى الثاني) ونجده متبعا عند ملوك الوندال والبايات في تونس.

9 - جمهوريات القرى والقبائل:

إن ضرورات الحياة الراعوية والفلاحية حتمت نشوء مجموعات أوسع وأقوى من العائلة "الأغنية". فأهل النجعة يتحدون للحفاظ على الأراضي التي يمرون منها. وأهل الحضر المتعاطون للفلاحة يشيدون القرى لصد هجومات أعدائهم الألداء وهم البدو. وقد أصبحت هذه القرى جمهوريات صغيرة خاضعة لسلطة مجلس الشيوخ (assemblée gérontocratique) هو نموذج الجماعة في بلاد القبائل يدير الشؤون المشتركة ويعاقب المتمردين حسب قوانين عرفية (القانون في بلاد القبائل. والأزرف في المغرب الأقصى).

ومن فوق العائلات "الأغنية" ومجموعات العائلات الراعوية وجمهوريات القرى توجد القبائل التي هي عبارة عن دول صغيرة وحدت صفوفها للدفاع والهجوم (ستيفان قزال). وتحتفظ مجموعات العائلات "الأغنية" باستقلالها حتى ضمن القبيلة وتوفد نوابا عنها لمجلس مشترك. ولكن عندما تضطرم الحرب تختار القبيلة قائدا يسعى إذا هو نجح في مهمته إلى الانفراد بالحكم وجعله وراثيا.

والقبائل تنهار أو تنتصر وتنتشر أو تنكمش كما تشاء صدف الحرب. وكثيرا ما تأكل أجزاء القبيلة بعضها بعضا نتيجة لقيام شيع وأحزاب متنازعة داخلها. وهي الصفوف (المفرد الصف. وهو اللف بالمغرب الأقصى) وتتحد أحزاب بعض القبائل مع أحزاب قبائل

أخرى قد تكون لا تعرف الاستقرار. ولا نزال نجهل كل شيء تقريبا عن توزع القبائل جغرافيا قبل الاحتلال الروماني.

10 - اتحاد القبائل والاغليد:

قد يجمع بعض القواد قبائل عديدة تحت سلطانه بماله من هيبة أو عن طريق القسر والغلبة أو أصبح اغليدا لها أو كما يقال ملكا عليها. والغالب على الظن أن الممالك البربرية تكونت على هذا النحو قبل الدول التي يرتبط تاريخها بتاريخ قرطاج ورومة. واتحادات القبائل أقل استقرارا من القبيلة نفسها. فالملك يفرض من دون شك سلطته على بلاد المخزن التي تشتمل على سكان المدن والحضر المقيمين في السهول وتمتد أو تضيق بحسب سلطانه. أما بلاد الصبا المشتملة على سكان الجبال وقسم من البدو فكثيرا ما تفلت من قبضته. وفي غالب الأحيان تتخلى عنه بعض القبائل وحتى القبيلة التي ينتسب إليها بعد أن أنهكتها الحروب التي تحملت العبء الأكبر منها أو أضنتها اللذات التي أتاحتها لها ثرواتها فتدفع بموته ثمن انتصارها.

إن سلطان الملك على قدر هيبته. فهو يستعين في ممارسة الحكم لا بموظفين رسميين بل بأقاربه أو خدمه. ويستشير وجوبا رؤساء القبائل الذين يقام لآرائهم وزن يتناسب مع عدد رعاياهم. فإذا ما غضبت عليه القبائل شقت عصا الطاعة في وجهه وقلته. ولذا فإن سياسته كانت ترمي دائما إلى تفريق صفوف المعارضين.

إن الملك وقبل كل شيء قائد تنضوي تحت لوائه بصفة مستمرة جيوش تمده بها قبيلته وخاصة الفرسان. وفي الأوقات العصيبة يجند عدد من "القوم" من القبائل الأخرى. وهم جنود من الطراز الأول. ولكن سلاحهم ناقص. وخضوعهم للنظام مرتبط بتقديرهم الشخصي للمنافع التي تنجر عن المعركة التي زج بهم فيها ملكهم.

والمشكلة المالية هي أكثر المشاكل استعصاء عن الحل. فالسلط المحلية تستخلص لا محالة الأداءات على المحصول الفلاحي وعلى الماشية عرضا في القبائل والقرى. وعينا في المدن. ولكن الملك كثيرا ما كان يكتفي بالهدايا التي تقدمها عن طواعية القبائل المنيعة. أو يجبي الضرائب بواسطة "الحركة" التي تعمد في نفس الوقت إلى نهب الجهات المترددة. ولا توجد أي مساواة في توزيع الضرائب.

إن الكثير من المؤسسات والعادات الإفريقية كان يوجد ما يماثلها في بلدان أخرى من البحر المتوسط. ولكن بعض البلدان مثل "غوليا" سرعان ما غيرتها بإضافة عناصر

خارجية إلى تراثها الذاتي. أما بلاد المغرب فقد بقيت هي هي غيورة على شخصيتها. وخضعت إلى السيطرة المادية لشعوب أجنبية من دون أن تتأثر بروحها. ورغم ذلك فإن تأثير قرطاج التي اتصل بها بعض البرابرة في أول الأمر فقط طبع مظاهر تفكيرهم وعاداتهم بطابع لم يمح حتى بعد سقوطها.



الباب الرابع

قرطاج

1 - التوسع القرطاجي

2 - الحروب البونيقية

3 - المدنية القرطاجية